المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
إدارة الثقافة والنشر

من ينابيع الثقافة
١٧

الدروس الحكمية للناشئة الإسلامية

تأليف
الأستاذ/ رفيق العظم
رحمه الله

إعداد وتقديم
محمود رداوي

١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
إدارة الثقافة والنشر

من ينابيع الثقافة
١٧

الدروس الحكمية للناشئة الاسلامية

تأليف
الأستاذ/ رفيق العظم
رحمه الله

إعداد وتقديم
محمود رداوي

١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـديم لمعالي مدير الجامعـة

الحمـد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وخاتم المرسلين . . وبعد . . .

نحمد الله أن المملكة العربية السعودية وبتوجيهات من خادم الحرمين الشريفين وولي عهده الأمين تولي الشباب السعودي بوجه خاص والشباب الإسلامي بوجه عام جل عنايتها واهتمامها إيماناً منها بأن هؤلاء الشباب هم رجال الغد وحملة مشعل الدعوة إلى الله ونشر رسالة الإسلام والذود عن حياضه .

والاهتمام بالشباب ليس غريباً على دولة أنشأت خلال فترة وجيـزة من الـزمن سبـع جامعات تضم مختلف التخصصات العلميـة ولهـا فروع في مناطق المملكة إضافة إلى العديد من الكليـات العسكـريـة والتقنيـة والكليـات الـتربـوية للبنات والكليـات المتوسطة والمعاهد العليا للبنين والبنات . كل هذا وأكثر لرعاية الشباب وتوجيههم الوجهة الصحيحة التي تؤمن لهم المستقبـل الخير وتجعلهم أداة نافعـة في بنـاء مجتمعـاتهم والنهـوض بأوطـانهم وتحمل المسئولية والأمانة المنوطة بهم تجاه دينهم وأمتهم الإسـلامية . والاهتمام بالتعليم الأكاديمي لابد

وأن يصاحبه اهتمام بنشر الثقافة وإيصال صوت الحق وتعريف أبناء الإسلام في كل بقعة من بقاع المعمورة بها يجب على الشباب أن يعرفوه عن تعاليم الدين الحنيف والشريعة السمحاء لكي يتجنبوا الوقوع في حبائل اعداء الإسلام والإنسانية الذين نصبوا أنفسهم وسخروا امكانياتهم في كل زمان ومكان لزرع بذور الشر والهدم والفرقة في المجتمع الانساني .

وهذه الجامعة وهي إحدى الجامعات السعودية المناط بها تعليم الشباب وتوجيههم ورعايتهم تؤمن بأن مهمتها لاتقتصر على القيام بواجبها تجاه الشباب المنتسب لأحد معاهدها وكلياتها فحسب بل لابد وأن يتعدى مقاعد الدراسة ليتصل بالشباب المسلم في مختلف أنحاء بلادنا وفي كافة الأقطار الإسلامية ومختلف المناطق التي يوجد أبناء الإسلام وشبابه .

ومن أجل إمداد هذا الشباب بالحقائق الواضحة عن الدين ومحاولة إرشادهم للطريق القويم وكشف الشبهات التي يروجها أعداء الإسلام في محاولات دنيئة للتغرير بشبابنا وجرهم إلى طرق الانحلال والانحراف

من أجل ذلك تواصل الجامعة إصداراتها الموجهة لهؤلاء الشباب بأسلوب علمي مبسط وعرض مقنع يوضح لهم

صلاحية هذا الدين لكل زمان وفي كل مكان وقدرته على حل مشكلات الإنسانية وتحقيق الخير للبشرية جمعاء وبسط العدل والسلام في أرجاء الدنيا .

والكتاب الذي بين يدينا «الدروس الحكمية للناشئة الإسلامية» للأستاذ والداعية الكبير رفيق بن محمود العظم رحمه الله . هو عبارة عن دروس إصلاحية في الدين والتربية والأخلاق والسياسة كان قد ألقاها رحمه الله على طلبته في «المدرسة العثمانية» في مصر وقد بلغت سبعة وعشرين درساً وكل درس يفتتحه بعنوانين الأول من عنده . والثاني من القرآن الكريم . وقد اندرج تحت كلامه شيء من التفسير ، ولكنه ليس بالتفسير المعهود ، وإنما هو إبحار في عالم النفس والكون كي يستخلص منهما دقائق أسرارهما . وإننا لنحس أنه في أفكاره وأحاديثه لأبنائه الطلبة وقارئيه آنذاك . منذ تسعين عاماً ـ هو حديث لأبناء هذا الجيل الذي عليه أن يأخذ بدعوته ويستجيب لتوجيهاته ، لأن فيها الدواء لمعظم الأدواء وفيها الصلاح لكثير مما فسد في هذه الأمة . وقراءة مثل هذه الكتب القيمة ضرورة ملحة لكل شاب وقارىء مسلم يتحرق شغفاً للتزود بالثقافة الإسلامية الحقة . وسط خضم من الكتب غير الملتزمة .

وقـد بذل الأستـاذ/ محمـود رداوي جهـوداً طيبة لملاحظة علامـات التنقيط والشكـل وتصحيـح الأخطاء وشرح بعض الكلمات والعبارات بما يسهل على القارىء فهم المعنى المطلوب .

نفع الله بهذا العمل الطيب وأجزل لمؤلفه وكل من ساعد في إظهـاره ونشره وتـوزيعـه الأجر والثواب . وأن يحقق الهدف المأمول منه إنه سميع مجيب .

عبد الله بن عبد المحسن التركي

مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة

الحمـد لله الذي جعل الإنسان على نفسه بصيرة[1]، وفضله على سائر خلقه بأن منحه من العقل هدى ونوراً، وأورثه الأرض ليكون خليفة فيها، ووهبه من أسباب السعادة نعماً لا يحصيها ، وأرسل رسله بالبينات والهدى لأوضح محجة[2]

(لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ)[3]،

وصلى الله على سيدنا محمد، خاتم النبيين ، المنزَّلِ عليه

(كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)[4].

وعلى آله وأصحابه الطاهرين.

فلابد، في تربية الأفكار الآن على مبادىء الشريعة، من وضع كتب جديدة تبين مزايا الدين الإسلامي للناشئة الإسلامية ، من

جهة ما يقوم أود[٥] النفوس الناشىء عن خلط الاعتقاد الصحيح بالبدع[٦] التى أضعفت النفوس من جهة[٧]، وأزاغت ضمائر بعض الناشئة عن حقيقة الإسلام من جهة أخرى ، لترشد تلك الكتب النشء الإسلامي إلى الدين من طريق العلم والعقل ، وإلى العمل من طريق الدين ، فتزرع في نفوسهم حب العمل والعلم ، وحب الدين والوطن ، وحب الثبات ، وغير ذلك من الكمالات النفسية والواجبات الإنسانية التى نبه عليها القرآن وجاء بها الإسلام .

وهذا ما قصدته من وضع هذا الكتاب .

وقسمت هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام : في الاجتماع ، مبادئه وروابطه ومقوماته ، ليكون أشبه بمرقاة[٨]، يرى فيها كيفية تدرج الإنسان في مراقي الحضارة والعمران ، بما وهبه الله من قوة العقل والإرادة ، وأرشده إليه من طرق السعادة ؛ وجعلت تحت كل قسم منها دروساً ، مستمداً فيها مادة البيان من آي القرآن .

فإذا صادف على هذا قبولاً عند العقلاء ، فذلك هو المقصود ، وإلا فلا أقل من أن يكون نموذجاً لمريدي الإصلاح الحقيقي في الأمة الإسلامية . وقد سميته (الدروس الحكمية للناشئة الإسلامية) . وأنا استغفر الله من كل خطإ يقع فيه ، وأرجوه العفو

والمغفـرة، لمـا يعلمه ـ سبحانه ـ من حسن قصدي وإخلاص ضميري، في كل ما يخطه قلمي لخدمة الإسلام والمسلمين.

والله ولي المتقين.

القسـم الأول

في ذكـر المبـادىء

الـدرس الأول

فاتحـــة

﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾

هذه فاتحة دروس ، أفتتحها ـ أيها الإخوان النجباء ـ وأمليها عليكم شذرات[٩] تكـون كسلسلة من حكم ، علها تنفعكم في حاضر أوقاتكم ومستقبل حياتكم ؛ على شرط أن تقبلوا بكليتكم عليَّ ، وتكـونـوا كلكم آذانـاً مُصغية إلي. فإني منـذ مدة أبذل قصـارى جهدى لأن أقف أمامكم موقف الواعظ المذكر، الذى يهمه تذكير أبناء ملته[١٠] والناشئين من بني وطنه ، بأن القليل من العمل خير من كثير من العلم بلا عمل، وأن مناط الحياة الطيبة التربية على مبدإ العمل، لأن الإنسان إنما خلق ليعمل فيحيا لا ليهمل فيموت ، وفي قوله تعالى :

﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾

ما يشير إلى شيء من هذا المعنى ، وربما تقولون : وأي معنى في هذه الآية يؤيد ما ذهـبـت إليه، ونحن نرى أن هذا البسيط

الأرضي[١١]، المملوء بمجالي العمران المتسع ، البالغ منتهى الفخامة والإعجاب بمصنوعات الإنسان ، شاهد عدل على مبلغ قوة الإنسان وقدرته في ترقية شؤون العمران ؟ فالجواب عن ذلك بسيط جداً، يظهر لكم من قولي ، فيما تقدم ، « إن الانسان خلق ليعمل فيحيا، لا ليهمل فيموت » ، أي إنه ضعيف باعتبار النشأة الأولى ؛ فإذا أَهْمَلَ أو أُهْمِلَ ، استمر على ضعفه فمات ؛ وإذا تربَّى وعُلِّم نشط فعمل فَحَيِيَ . وإليكم البيان.

انظروا ـ رعاكم الله ـ إلى مبدإ الإنسان في حال نشأته ودور طفوليته، ترونه أضعف من كثير من أنواع الحيوان، قاصراً عاجزاً جزوعاً هلوعاً[١٢] ، يترصده الحيوان المفترس بمخلب وناب ، وتكتنفه[١٣] الأقدار بمصائب وأوصاب[١٤] . فيدب[١٥] محاطاً بالمكاره الخارجية من أمراض قتالة وعوارض مغتالة[١٦] ، ثم يشب[١٧] فيقع في قبضة مكاره[١٨] النفس الداخلية؛ فيكون في الحالين، أي منذ يدب إلى أن يشب ، عرضة للمهالك ، بين عاملين قويين ، أسهلهما عليه أقتلهما له. وليس هذا حال الإنسان باعتبار الطفولية فقط ، بل هو حاله أيضاً باعتبار أول وجود الإنسان على الأرض. إذ إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما خلق الإنسان ، خلقه سليم الفطرة ساذجاً ، ليس عنده من القوة الطبيعية والإلهامات الفطرية ما عند سائر الحيوان ، ليدفع بها الآفات[١٩] ويصد الهجمات ، اللهم إلا مسحة العقل الفطري ، كانت لا تغني عنه من الحياة شيئاً ؛ ـ ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ

أودع في خزائن ذلك العقل أسراراً كامنة فيه كمون النار في الزناد[٢٠]، فكما أن هذه لا تظهر إلا بالقدح[٢١] كذلك تلك الأسرار، وهي مدارك العقل الفائقة، لا تظهر إلا بالاحتكاك بالمقاصد[٢٢] الحيوية التي لا تتناهى في جانب العقل البشري .

ومثاله، أن الإنسان إذا جاع ، ثم أكل شيئاً من نبات الأرض فشبع ، لا يقتصر في سائر أيام حياته على ذلك النبات ، بل يبحث عن غيره ويتطلب سواه مما يكون أعظم تغذية وألذ طعماً ؛ وهكذا الحال في سائر ما يحتاج إليه الإنسان. ولهذا السبب امتاز الإنسان عن جميع الحيوان، وقد كرمه الله ، ورفع من قدره ، حيث خلقه بيمينه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته ، وأسكنه جنته، وخلق منه زوجه، وجعله نبياً , ولم تصل ذرية آدم على الأرض إلى ما وصلت إليه من انحطاط وضياع إلا بعد انقطاع الوحي ، وضلوا في تخبط وتيه حتى أنقذهم الله بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

الــدرس الثــاني

الإنســان عاقــل

﴿ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ - - - ﴾

علمتم ، ممـا تقـرر في الدرس الماضي ، أن الإنسان في حياته الأولى ، كان أضعف من الحيوان. وما ذلك إلا لأن الله ـ سبحـانـه وتعـالى ـ أودع في كل حيوان إلهـاماً خاصاً وإدراكاً محـدوداً يسيرانه في طريق الحياة بدافع فطري يعيش به عيشة بهيمية غير قابلة للتغير، وألبسه من القوى الظاهرة لباساً لا يحتاج معه لاستعمال سلاح آخر، لدفع آفات الطبيعة وهجمات العدو. وأما الإنسان فليس كذلك، بل هو ذو قوى عقلية كامنة فيه ـ كما تقـدم ـ وقـابلة للزيادة والنقص أو الـظهور والاختفاء ، ويحتاج لاستعمالها في أمر المعاش ، وتدبير وسائل الحياة التى لا تصدر عنه إلا بعد الروية(٢٣) والتفكر فيما يدفع عنه الشقاء في الحياتين ، ويسهل له طريق السعادة للدارين ؛ فإذا استعمل تلك القوى مع الروية والتفكر، نجا وصلح ، وإلا هلك. وإليه وردت الإشارة في قوله تعالى :

﴿ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾(٢٤)

لهـذا كان الإنسان ضعيفاً بالنسبة للحيوان، مالم يعمل بما رزقـه الله من قوى العقـل لآخرته، ويشتغل في تدبير المعيشة لدنياه. وما دام ذلك كذلك، فلا ريب أن الإنسان يحتاج في تدبير المعيشة إلى وسائط كثيرة، أهمها التعاون والاجتماع. ونخال[٢٥] أن أول شعور تنبه في هذا النوع، هو الشعور بعجز كل إنسان بمفرده عن مجاراة الحيوان في طرق المعيشة الفطرية، واحتياجه إلى مسـاعـدة من عداه من بني النوع في تدبير شؤون الحياة البشرية؛ فكان ذلك من بواعث انضمامه في أي حلقة من حلقات الاجتماع أو جمعية من جمعيات البشر، التى كانت تدبر أصول معيشتهـا على أبسط صورة يمكن أن يتصـورهـا العقـل لمثـل الجمعية الأولى للإنسان، ومن ثم كان مبدأ التآلف والاتحاد من أهم المبادىء التى تأسست على دعامتها سعادة البشر الدنيوية وحيـاتهم القـوميـة؛ كمـا سـتـرون ذلـك مفصـلاً فيما يلي من الدروس، إن شاء الله.

الإنسـان مدنـي

﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

كان الإنســان يسكن الغــابـات الكثيفـة ، ويأوي إلى ظل الأشجار الغضة[٢٦]، ويأكل من نبات الأرض[٢٧]، ويهيم من الحيرة في كل واد ثم أخـذ يبني لنفسـه الأكواخ الحقيرة، وينحت في الجبـال بيوتـاً ـ ومنهـا الكهوف الصناعية التي ترى في كثير من الجبال ـ اتقاء عوادي[٢٨] الزمن ودفعاً لمخاطر الوحدة. ثم ما زال يتسع أمامه مجال الفكر، وتتشعب طرق المقاصد.بتشعب طرق المعيشـة ، حتى تولدت فيه قوة الاختراع وقوة الحرص والطمع فنما عنده حب التغالي[٢٩] بمظاهر الاجتماع ، والتغالب[٣٠] في ميدان المناظرة[٣١] الدنيوية؛ فاحتاج للاعتصام بقوة الاجتماع في المدن، طلباً لرفاه العيش وهرباً من عناء البداوة؛ فخطط المدن ، وابتنى المعـامـل والحصـون ، ومصـر[٣٢] الأمصـار، وشيد فيها شاهقـات القصـور وزاهيات المنازل والدور. وكان في غضون ذلك ، يجول بفكره في مناحي الطبيعة، باحثاً عما أودع الله فيها من الأسرار ، وأوجد من المنافع ليسخر منها لمصلحته ما شاء فيما شاء.

ومن نعم الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ورأفته بهذا الإنسان ، أن جعل له من العقل سلطاناً ، إذا أطلقه من وثاق[33] الأوهام ، تناول به أسرار الطبيعة من كبد السماء[34] ، ويخرج بها من أعماق الأرض ، بلا حرج[35] عليه ولا حجر ، لينتفع بها في الحياة الدنيا ، ويتوصل بها لتعظيم الصانع ـ جل وعلا ـ فينال بذلك سعادة الآخرة والأولىٰ . وإلىٰ هذا وردت الإشارة بقوله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[36]

وإنما خوطب الناس بهذا ، بعد ترقي العقل البشري إلى مقام العلم الداعي للتكليف ، الموجب للتبصر في مكنونات الأرض والسماء . فسبحان من أجزل[37] للإنسان بدائع النعم[38] ، ومَنَّ[39] عليه بالعلم ، فقال تعالى :

﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾[40]

٢

الـدرس الرابـع

الإنسـان الكامـل

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾ [×]

هكـذا كان حال الإنسان ، وكذلك خرج من مصاف[٤١] بقية الحيوان ، وصعد بالتدريج من وهاد[٤٢] البهيمة إلى أوج الحضارة والمـدنية. ولا يزال كذلـك ، مادام دائبـاً[٤٣] في تتبـع أسـرار الطبيعة ، مشتغلاً في اكتشاف كنوزها التي أودعها الله فيها ذخيرة خيرة للإنسان ، يتناولها بقوة العقل ، ويصل إليها بالمثابرة على العمل ؛ فيزرع ويستثمر ، ويعمر ويستعمر[٤٤] ويخترع ويبتدع ، ويتفيأ ظلال العمـران ، ويستمـد مادة الحياة الـطيبـة مع توالي الأزمـان ، من خلال المتـاعب والمشـاق التي يتكبـدها[٤٥] في استجلاء الحقائق ، وإطلاق الفكر في أطراف الوجود ، يتناول به من أسراره قوة تدرأ[٤٦] عنه غوائل[٤٧] الضعف الطبيعي الذي فطر عليه ، وتدفع طوارىء[٤٨] الزمن وأخطاره التي تكتنفه .

وقد جَدَّ الإنسان وراء هذه الغاية فوصل ، وفعل في هذا الوجود من آثار العقل ما فعل ، مما هو مشاهد في كل زمان ومكان . ولكن ، بماذا وصل إلى ذلك ؟ هل بمجرد كونه إنساناً عاقلاً ،

ضعيفاً قوياً؟ لا ، بل توصل إلى ذلك تدريجاً بإعمال الفكر(٤٩) ، والاسترشاد إلى طرق السعادة بنور العلم الذي استمده من الشرائع الإلٰهية ، واهتدى به إلى تطهير النفس البشرية من أدران(٥٠) البهيمية ؛ فأقام له ذلك العلم من نفسه على نفسه حسيباً(٥١) يهديه نوره ، وأحله(٥٢) من هذا الوجود في مكان كان فيه كما وصفه الله تعالى : ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾(٥٣)

ومن ثم تَكَوَّنَ منه الجماعات العظيمة ، شعوباً وقبائل ، شيدت أسس الممالك ، وأقامت الحكومات ورفعت دعائم الدول . لهذا كان الدين ضرورياً للاجتماع ، ملازماً للبشر في سائر أطوار الحضارة التي لا تقوم إلا به ؛ ومنه تستمد الروابط والمقومات ، التي هي من لوازم الاجتماع المدني وضروريات الترقي البشري ، كالملك ، والعدل ، والحرية ، وطاعة الله ، وحب الناس ، وحب الوطن ، وحسن المعاملة ، والاعتماد على النفس ، والجد في العمل ، وغير ذلك من الروابط والمقومات التي هي غرضنا من هذه الدروس .

وسنفصلها لكم ، باباً باباً ، تفصيلاً تعلمون منه ما يلزم لترقي الشعوب ويصاحب الحضارة والعمران مع توالي الأزمان . ونبدأ من ذلك بذكر الروابط ؛ وأولها الدين ، لأنه أساس الخير المبني على المصلحة العامة . ونسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يسدد(٥٤) قولنا ، ويثبت في مواطن الحق قدمنا ، إنه أكرم مسؤول .

(حـواشـي القســم الأول)

(١) البصيرة : الحجة والشاهد.

(٢) المحجة : جادة الطريق.

(٣) سورة النساء / آية : ١٦٥.

(٤) سورة فصلت / آية : ٣.

(٥) الأود : الاعوجاج.

(٦) البدع : جمع بدعة ، وهي الجديد المستحدث في الدين.

(٧) أزاغ : أمال وحرف.

(٨) المرقاة : السُّلَّمُ.

(×) يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا «سورة النساء/ آية : ٢٨ .

(٩) الشذرات : القطع الصغيرة، وأصلها قطع الذهب الصغيرة، ومفردها شذرة.

(١٠) الملة : الدين والمذهب .

(١١) البسيط الأرضي : الأرض الواسعة المنبسطة ، والمراد بها هنا الكرة الأرضية.

(١٢) الجزوع والهلوع : الشديد الخوف مع الضعف والجبن.

(١٣) اكتنف : أحاط وألمَّ.

(١٤) الأوصاب : الأوجاع ، ومفردها وصبٌ.

(١٥) دب ـ يدب : مشى مشياً رويداً أو متمهلاً.

(١٦) المغتالة : التى تصيب الانسان من حيث لا يدرى.

(١٧) شب ـ يشب : أدرك طور الشباب.

(١٨) المكاره : المصائب.

(١٩) الآفات : البلايا.

(٢٠) الزناد : جمع زند ، وهو العود الذي تقدح به النار.

(٢١) القدح : الإشعال.

(٢٢) المقاصد : الأغراض والمطالب.

(×) إنّا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا «سورة الإنسان / الآية : ٣.

(٢٣) الروية : التأمل وإمعان النظر.

(٢٤) سورة الإنسان / آية : ٣.

(٢٥) خال ـ يخال : ظن واعتقد.

(×) سورة العلق / آية : ٥.

(٢٦) الغضة : الطريـة.

(٢٧) هـــام : مضى دون وجهة.

(٢٨) العوادي : الكوارث.

(٢٩) التغالى : المبالغة إلى أقصى الحدود.

(٣٠) التغالب : التنازع والتصارع من أجل الغلبة.

(٣١) المناظرة : المجادلة.

(٣٢) مصر الأمصار : جعلها مأهولة بالسكان وذات عمران.

(٣٣) الوثاق : القيد.

(٣٤) كبد السماء : وسطها.

(٣٥) الحرج : الإثـم.

(٣٦) سورة البقرة / آية : ٢١ و ٢٢ الأنداد : مفردها ند ، وهو الشبيه والنظير.

(٣٧) أجزل : أكثر من العطاء.

(٣٨) بدائع النعم : النعم الجديدة الصنع لا على مثال.

(٣٩) مـن : أنعـم.

(٤٠) العلـق : ٤ ، ٥.

(×) سورة القيامة / آية : ١٤.

(٤١) المصاف : جمع مصف ، وهو موضع الصف والاصطفاف.

(٤٢) الوهاد : جمع وهدة ، وهي المكان المنخفض.

(٤٣) دائب : مجد مع مثابرة.

(٤٤) استعمر المكان : جعله معموراً

(٤٥) تكبد : قاسىٰ وعانى.

(٤٦) درأ : منع.

(٤٧) الغوائل : جمع غائلة ، وهي المصيبة المهلكة.

(٤٨) الطوارىء : جمع طارئة ، وهى الكارثة.

(٤٩) إعمال الفكر : جعله يعمل أي يفكر.

(٥٠) الأدران : الأوساخ ، ومفردها درن.

(٥١) الحسيب : المحاسب والرقيب.

(٥٢) أحلـه : أنزله ، وضعه.

(٥٣) سورة القيامة / آية : ١٤.

(٥٤) سدد القول : جعله سديداً ، أي صائباً.

القسـم الثـاني

في ذكـر الروابـط

الـدرس الخامـس

حاجة البشر إلى الدين

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (*)

اعلموا أن حاجة البشر إلى الدين كحاجة الجسم إلى الغذاء؛ فكمـا أن الغـذاء حياة الجسم وقِوَامُه(**)، فكذلك الدين حياة النفس لا تطيب إلا به. وقد أثبت التاريخ ودلت الآثار على أن الـدين مُربِّي الإنسـان ، ومـرشد الأمم إلى طرق المدنية، منذ تكـونت جمعيات البشر، كما تقدم ذكره، بدليل ملازمة الأديان للبشر منذ عرف التاريخ إلى الآن؛ حتى إننا لا نرى الآن أمة على وجه الأرض إلا ولها دين معروف ، وشريعة خاصة بها ولو وضعية، أي من وضـع البشـر ومستنبـطات العقول. لم ذلك ؟ لأن الله (سبحـانـه وتعـالى)، أول ما فطر الإنسان على حب المصلحة ومعرفة الخير من الشر، إنما فطره بواسطة الأديان السماوية التى كانت تهبط من جانب الحق (تعالى) على الرسل الكرام (عليهم الصـلاة والسلام)؛ وهؤلاء يبلغونها للناس ، ويدعونهم بها إلى سبيل الرشد وطرق السعادة البشرية، ليهتدوا بها إلى المصالح

التى تَقـومُ بها حياتهم، وَيُقَـوِّم معوج عملهم، وينتظم في الحياة الدنيا شأنهم، ويظهر جوهر كمالهم الذى يهيئهم للترقي في سلم المدنية والتوصل إلى السعادة الأبدية؛ وإلى هذا وردت الإشارة في القرآن الكريم ، بقوله تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾[٥٦]

وقد بلغت هذه الآية غاية الغايات في الدلالة على رعاية الشرائع الإلهية لمصالح البشر الروحانية والجثمانية، وما كلف به الرسل من ذلك ، في إقامة ما اعوج من أعمال الإنسان بميزان الشرع، وإرجـاعهم إلى الكتـاب بالبينات ليقوموا بالقسط ، أي لتعتدل أعمـالهم البـدنية والنفسية؛ إن لم يتيسر ذلك بالبيانات وحكم الكتاب، فبالزجر[٥٧] بالقوة، وهي الحديد.

لهذا كان أساس التربية البشرية هو الدين ، بدليل ما يشاهد في حالة الأقوام ، الذين لم يتمتعوا ـ ولو بقليل ـ من أنوار الدين الإسـلامي ، من التقهقـر في مضمـار المـدنية والتـوغل[٥٨] في مهـامـه[٥٩] الأخـلاق الهمجية ، كسكـان (بعض المنـاطق الإفريقية) الآن ، ممن لم تصلهم روح الدين الإسلامي .

وما قلناه من أَنَّا لا نرى أمة على وجه الأرض الآن إلا ولها دين معروف ولو وضعياً، برهان ظاهر على أن الإنسان نشأ وتربى عقلاً وفطرة بواسطة الأديان الإلهية. وإنما احتاج بعض الشعوب إلى الرجوع للوضع العقلي لما أهملوا أمر الدين، وفقدت منهم أصول الشرائع الإلهية، ثم رأوا أن لا حياة إلا بالدين، ولا اجتماع إلا على كلمته فاضطروا إلى الوضع، ولو وضعاً فاسداً ممزوجاً بشيء من آثار الدين الصحيح الذي علق بأفكارهم أو اختلط بعوائدهم شيء منه. ولله في خلقه شؤون.

الدرس السادس

جامعة الدين

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾[×]

سبحان الله ، ما أعظم مننه[٦٠] وأعدل عمله ! افترقت الشعوب فجمعها[٦١] ، وتغالبت الأنفس فهذبها، وتباينت[٦٢] المقاصد فوحدها، وافترقت القلوب فألف بينها. فانضمت الأقوام إلى ما شرع من شرائع، ارتبطت بها مصالح الأمم، واتحدت كلمة الشعوب ؛ فذللوا المصاعب ، ومدوا ظلال العمران ، وشيدوا الممالك . وبالجملة، وضحت[٦٣] لهم طرق السعادة فسلكوها، وتوصلوا إلى نعيم الحياة فتمتعوا به ؛ بنسبة ما شرع لكل أمة من شرع وافق حالة ترقيها، وناسب مقتضى زمانها

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾[٦٤]

عناية من الله ما وفَّاها الأمم حقها، ونعم قصروا عن واجب شكرها. فدالت[٦٥] دولهم وانطفأ نورهم ، حين زاغت[٦٦] أبصارهم عن الحق ، وافترقوا شيعاً[٦٧] في الدين اندفعت مع

الأهواء اندفاع الغريق مع تيار الماء ؛ فانحلت عراهم[٦٨]، وافترق مجتمعهم، فانقلبوا خاسرين، ذلك بأنهم كفروا[٦٩] بأنعم الله،

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾[٧٠]

ما كان الله ليأخذ قوماً بجريرة[٧١] آخرين ، و

﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ ﴾[٧٢] ،

مازال ـ رحمة منه بالأمم ـ يرسل رسله بالبينات ، وينزل عليهم الشرائع بما يوافق الشؤون والمناسبات الطبيعية عند كل أمة وفي كل زمان. حتى حالَ حالٌ[٧٣] ، وجاء زمان استعد فيه الإنسان للكمال ، وآذنت[٧٤] إرادة الله (تعالى) بمخاطبة العقل وإرشاد للسعادة التامة بالعلم اليقين ؛ فأرسل نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه قرآناً يكلف المؤمنين معرفة أحكامه لطريق العلم ، فقال (تعالى) فيه :

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٧٥]

وقرر فيما قرر من أسباب السعادة ، مبادىء الإخاء الإسلامي تحت جامعة الدين.

فقال (تعالى) فيه :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[٧٦]

وقال (تعالى) :

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[77]

ثم لما كان من شرط الإخاء الصحيح في جامعة الإيمان اتحاد سائر بنيه للذب[78] عن شرائعه والانتصار له، بخروج المؤمن عن نفسه وسائر ما يملك في سبيل نصرة الحق والإيمان ، فقد قال الله (تعالى) :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾[79]

بهذه الجامعة العظمى والرابطة المثلى ، تألفت قلوب الأمم لمتنافرة، وتضافرت[80] قوى الشعوب المتفرقة. فاندفع الإسلام ي أطراف البسيط الأرضي، يدوخ[81] أهله الممالك ، وينشرون لدين واللغة والمدنية ، ويبسطون[82] نور العلم والتربية إلتهذيب ؛ كل ذلك فعلوه في أقل من قرن ، بماذا ؟ بجامعة لدين ورابطة الحق اليقين.

الدرس السابع

معرفة الدين واجبة

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾[×]

إذا كان الدين ضرورياً لازماً للاجتماع، فمعرفة الدين أيضاً لازمة لكل فرد من أفراد أهله بلا استثناء. ولا يكفي في هذه المعرفة كون المسلم ـ مثلاً ـ يعرف الأركان الخمسة للإسلام، بل يلزمه أن يكون على بصيرة من دينه، وعلم ـ ولو اجمالياً ـ[٨٣] بشرائعه وسياسته؛ فإذا سمع قارئاً يقرأ، أو قرأ هو، قوله (تعالى): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[٨٤]

يتدبر معنى هذه الآية، لقوله (تعالى): ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٨٥]

ويكون على علم ـ ولو إجمالياً ـ من فوائد هذه الطاعة، وأنه يترتب

عليها مصلحة المؤمنين ، وترتبط بها سعادة المسلمين . لأن الله (سبحانه وتعالى) لا يأمر عباده إلا بالخير ، والرسول كذلك لا يأمر إلا بخير، فوجبت الطاعة لهما فيما يأمران به وينهيان عنه ، لأنه خير ومصلحة للمؤمنين . وكذلك ولي الأمر، إنما وجبت له الطاعة من حيث وجبت لله وللرسول ، لكونه منفذاً لأمر الله والرسول ، وهي خير، كما تقدم ، فالطاعة له خير أيضاً.

ولا جرم[٨٦] أن العلم بالشيء ، من حيث إنه خير يوجب الرغبة به والميل إليه. فعلم المسلمين بهذه الطاعة أنها خير، يوجب تأصيل[٨٧] الشعور في نفس كل فرد منهم بأن هذه الطاعة طاعة واجبة لله في جميع ما شرع من الشرع للمسلمين ، فوجب معها العمل بكل ما أمرهم به ، من التمسك بالعقائد ، والمحافظة على الدين ، والذود[٨٨] عن حياض[٨٩] الشريعة ، والقيام في وجه العدو ، والاتحاد على كلمة الإسلام ، وغير ذلك من المصالح المتوقفة على الطاعة التى لا سبيل إلى أدائها إلا بالعلم بها ؛ وما لا سبيل إلى أداء الواجب إلا به فهو واجب ، فالطاعة واجبة، والعلم بها واجب أيضاً. وهكذا الحال في سائر ما جاء به الدين ؛ لأن التوحيد، الذى هو أول ركن من أركان الدين، إنما دعانا الله إليه من طريق العلم، فقال (تعالى) :

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾[٩٠]

فما بالكم ببقية فروع الدين وأصوله ؟
لهـذا كان العلم الإجمـالى بالـدين واجبـاً على جميع المسلمين. وبمعـرفة هذا الواجب عمل الصحابة الكرام بسائر ماجاء به القرآن وأمر به نبينا (عليه الصلاة والسلام)؛ فمن لم يكن منهم على علم تفصيلي بأمـر الدين ، كفاه العلم الإجمالي ، فدعـا إلى الله على بصيرة ، وعمـل بعلم. وبهـذا وصف الله المؤمنين ، وإليه أرشـدهم في قرآنـه العـظيم ، فقـال (تعالى) مخاطباً نبيه (صلى الله عليه وسلم) :

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾[٩١]

وبهذا ألف الصحابة الكرام قلوب الأمم على الإسلام، وعمموا الـدين والسياسـة واللغـة بين الأنام؛ فملؤوا الأمصار علماً، وضربوا[٩٢] دون الجهـالـة سداً؛ فأخـذوا بنـواصي[٩٣] الأمم، وانقادت لهم الشعوب ، وانحطت دون هممهم[٩٤] همم قياصرة الروم وأكاسرة العجم. ومرت على ما أسسوه من قواعد العمل بالعلم بحقيقة الدين أعوام وأيام ، أتى بعدها خلف[٩٥] انقلب إلى الشهوات وقنع بآثـار المجـد، وخلف آخـر أحـرجـه مرض القلوب فلجـأ إلى الحشو[٩٦] في الـدين والإكثـار من القـول على غير يقين ؛ ففـرقـوا وحدة الأفكـار، وشتتـوا أجـزاء الأمـة ، وهـم يحسبـون أنهم يحسنون صنعاً، ألا ساء ما كانوا يصنعون.

الـدرس الثـامن

الحكومة وضرورتها للاجتماع

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾[×]

قد علمتم لزوم الدين للاجتماع ، فينبغى أن تعلموا أن الملك أيضا من لوازم الدين والاجتماع ، وذلك لما سبق شرحه من أن مصالح البشر لا تتم إلا بالاجتماع ، وأن الإنسان الواحد يستحيل أن يقوم بسائر وظائف الحياة البشرية إلا إذا رجع إلى مصاف بقية الحيوان ؛ وليس هذا مراد الله في الإنسان.

ومن المقرر أن الاجتماع لا يخلو من المنازعات المفضية[٩٧] إلى تغالب القوى المتنازعة وتكافحها في ميدان الحياة. فإذا لم يمنع ذلك التغالب بقوة الوازع[٩٨] الذي يناط به تنفيذ أحكام الشرائع ، غلب القوي الضعيف فأهلكه ، وصدم [٩٩] الجليل الحقير فأماته ؛ وفي هذا من الخلل بنظام المجتمعات ما يؤدي إلى فسادها وتداعي [١٠٠] أركانها . ولهذا ، لما شرع الله الشرائع للبشر، جعل لها قُوَّاماً ،[١٠١] هم الرسل الكرام (عليهم الصلاة

والسلام) ثم الأئمة والخلفاء من بعدهم.

وفي قوله (تعالى) :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾[102]

إشارة إلى ذلك المعنى ، كما جاء في تفسير (الفخر الرازي) الكبير[103]؛ وخلاصته : أن الأنبياء الذين أنزلت عليهم تلك الشرائع، هم الذين يدفع الله بهم الآفات عن الخلق ؛ وأنه ، كما لابد في قطع الخصومات في الدنيا من شريعة ، فلابد في تنفيذ الشريعة من قُوَّامٍ.

إذا تقرر هذا، فاعلموا أن الحكومات ضرورية للبشر ، ولا قِوَامَ لأمة أو حياة لشعب إلا بحكومة أو سلطان . فمن شأن الحكومة أن تهيمن على الشرائع والقوانين ، وتعمل بها في ترتيب معيشة الشعب ونظام الأمة، وتنظر في سائر المصالح التى تعود على الهيئة المحكومة بالخير وتدفع عنها الشر؛ سواء كان ذلك بالنظر إلى علائقها مع الأمم المجاورة، كربط صلة الجوار ، وتسهيل أسباب التبادل في المنافع ، ووضع المعاهدات ، وإعلان الحرب ، وإبرام[104] الصلح ، ونحو ذلك من العلائق

الجوارية ؛ أو كان بالنظر إلى شؤونها الداخلية ، كتوزيع الجباية ، ورد الحقوق ، وحفظ الأمن ، وإقامة الحدود[١٠٥]، وتأمين السابلة[١٠٦] ، وتسهيل طرق التجارة، وغير ذلك من موجبات الراحة والنظام في داخل المملكة .

الدرس التاسع

الحكومات والإسلام

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾[x]

إن الحكومة إنما هي جماعة من الشعب ، يترشحون لتولي شؤون الوظائف المناط بها ترتيب نظام الشعب والمحافظة على دواعي[١٠٧] راحته ورفاهه. فهم لا يمتازون عن الكافة بخصيصة[١٠٨] من خصائص البشر أو بمزية[١٠٩] من مزايا الترفع عن أمثالهم من الناس، إلا بكونهم قُوَّامُ الشريعة ، فتجب لهم على الناس الطاعة ماداموا في طاعة الشرع ، ليتسنى[١١٠] لهم تنفيذ أوامر الشريعة وتنظيم نظام الأمة ، بإيقاف النفوس المتغالبة عند حد القانون الذي هو سياج[١١١] المجتمعات ومناط راحة الشعوب.

ولكن قضت سنن الوجود الاجتماعي أن يأتي زمان على الإنسان ، ينقاد فيه للجهل المطلق بباريء[١١٢] الوجود ، فيعتقد بروح فعال بالحاكم أو السلطان ، وينزله منزلة المعبود في كثير من

الأحيان، كما كان يعتقده (الصينيون) بملكهم وينعتونه بابن السماء، وكما كان اعتقد ذلك بملوكهم كثير من الأمم الخالية[١١٣] فغلوا[١١٤] في تعظيمهم ومن دونهم من الحكام غلواً تأباه الأحلام[١١٥]. ولما كانت تنزل الشرائع الإلهية، وتمحو عن صفحات العقول هذه الصور الباطلة والاعتقادات العاطلة[١١٦]، فينصرف الناس إلى وجه الحق ومحاسبة الوجدان ومعرفة الخالق الديان[١١٧]؛ كانت تبقى مرتسمة في مخيلاتهم آثار التعظيم المشعر[١١٨] بالتدني عن درجات الحكام، لمجرد كونهم حكاماً فقط لا لقصد وجهة العبودية الأولى؛ وكانت هذه الآثار تتجسم[١١٩] عند بعض الشعوب تارة وتضعف أخرى بنسبة حال الحاكم وانصباغ الحكومة بصبغة العدل أو الاستبداد.

ومما لا ريب فيه، أنه ما أفنى الأمم وقتل عواطف الشعوب فأضاعوا استقلالهم القومي وقضوا على حياتهم الاجتماعية، إلا ذلك الاعتقاد الفاسد والخضوع المطلق لإرادة أفراد، قل أن تقف إرادتهم في سياسة الشعوب عند حد الشريعة أو القانون، ولا تتجاوز بها غلبة الشهوات إلى استعمال قوة القهر المانعة من ترقي النفوس البشرية في مراقي الكمال الطبيعي، الذي لا يتأتى إلا بإطلاق حرية العقل وتصريفه[١٢٠] في أنحاء الوجود، لتناول أسرار الطبيعة المسخرة لنفع الإنسان بإرادة خالق الأكوان الكريم المنان[١٢١].

أثبت التاريخ ، وقضت سنن الاجتماع ، أن تجاوز الهيمنة العادلة على قوانين الأمم وشرائعها إلى الحكم المطلق التابع لأغراض النفوس ، يُقَوِّضُ (١٢٢) أركان الممالك ، ويدمر صروح(١٢٣) العمران ؛ وذلك لما فيه من الظلم المفسد لأخلاق الأمة ، الداعي لتفشي أمراض الخيانة والمكر والتحيل(١٢٤) ، الباعث على تسلسل(١٢٥) خلق الظلم في سائر طبقات الأمة من أعلاها إلى أدناها ؛ وذلك لفقد المناصحة بين الناس ، وقيام القوة مقام الحق ، والسيف مقام القانون . وناهيك(١٢٦) بما ينشأ عن هذا من إذلال النفوس الكريمة ، واعتيادها على الرضوخ(١٢٧) للمهانة والضعة(١٢٨) ، وفقدها لأخلاق الشهامة والشمم(١٢٩) والشجاعة . وأي نهاية لهذا كله سوى موت الأمم وتداعي أركان الدول ؛ والعياذ بالله تعالى .

ولدفع هذا البلاء عن الشعوب ، أتى الإسلام مؤسساً على العدل ، داعياً إلى المناصحة(١٣٠) بين المؤمنين ، منبهاً على فوائد العدل تارة ، وتقريع(١٣١) الظلم الذي هو ثمرة الاستبداد أخرى ، تقويماً لا عوجاج الحكم الجائر(١٣٢) عند الأمم ، وتمهيداً لطريق السعادة بالاستقلال العقلي الذي قامت عليه دعائم المدنية الإسلامية ، المبنية على إطلاق حرية الضمائر، والمناصحة بين المؤمنين ، كما يشير إليه قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ

﴿ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾[١٣٣]

وهو أمر عام ، يقضى على كل فرد بتحري[١٣٤] مصلحة الآخرين جهد الطاقة .

وإن أمة تتكافل[١٣٥] على مصالحها العامة لأمة حرية[١٣٦] بأن تنقاد لها الشعوب ، وتمهد أمامها المسالك[١٣٧] ، وتُشَيَّدَ بعدلها الممالك . وقد تحقق للأمة الإسلامية ذلك حيناً من الدهر ، انقلب بعده المسلمون خاسرين، لما[١٣٨] نزغ بينهم شيطان الدخيل[١٣٩] ، فتفرقوا، ونزعوا منازع[١٤٠] وثنيته الأولى ؛ وماخافوا واتقوا ، ففتحوا بذلك سبيلاً للوهن[١٤١] على كلمتهم فتفرقت ، وعروة اجتماعهم فانحلت ، وعزهم فزال ؛ فانطبق عليهم قول رب العالمين :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[١٤٢]

الدرس العاشر

العدل في الإسلام

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾(*)

بينما كانت الأمم ترسف(١٤٣) في قيود الاستبداد المطلق ويتخبطها(١٤٤) شيطان الاستعباد الأزرق(١٤٥) ، فتتعثر بأشباح القوة الظاهرة، وتهوي في ظلمات العدم ؛ أرسل الله نبيه (محمد) صلى الله عليه وسلم للأمم بشريعة ، لا تدع لسلطان القهر الجائر سبيلاً إلى النفوس أن تؤسر له وتهان بين يديه ؛ فوضعت للناس ميزاناً لا ترجيح(١٤٦) فيه لنفس على نفس إلا بتقوى الله ، وأعطت للعقل حق الاستقلال المطلق ، لينشط من أسر الأوهام ، ويخرج من الظلمات إلى النور. وفصل القرآن ذلك تفصيلاً لا غاية بعده لمستزيد؛ لهذا قال الله تعالى فيه خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم :

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾(147)

فبين هذا الكتاب الكريم من آيات الحكمة البالغة بوجوب العدل في سائر الأعمال على العموم وعدل الحكام على الخصوص، ما فيه هدى ورحمة للعالمين، وبه ترتبط سعادة البشر أجمعين.

ولما كانت أهم مراتب العدل ثلاثاً: العدل في الأحكام الإلهية فيما يرجع إلى رد الحقوق وإقامة الحدود، والعدل في التساوي بالحقوق التي يشترك بها الناس وتقضي بها حرية العقل، والعدل في المعاملات بين الناس بعضهم مع بعض كاجتثاث الغش والخيانة والمداهنة(148) وغير ذلك؛ فقد لزم أن نبين لكم ما جاء به القرآن من ذلك على وجه الإجمال، ونتكلم على كل مرتبة من هذه المراتب كلاماً عاماً مجملاً.

ولا يمنعنا هذا من أن نتلوا عليكم، قبل البحث في هذه المراتب، بعض ما جاء في القرآن من التنبيه على العدل، فيما لا ينضم إلى هذه المراتب من سائر أعمال الإنسان. فمن ذلك قوله تعالى في وجوب العدل في المعيشة:

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾(149)

وقوله تعالى في العدل بين النساء :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ (١٥٠)

وقوله تعالى في العدل بالكرم :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ (١٥١)

وقوله تعالى في العدل بالشجاعة :

﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ (١٥٢)

وغير ذلــك كثير من الآيات المنبهـة على الاعتـدال في سائـر الأعمـال . والاعتـدال ـ كمـا لا يخفاكم ـ هو العدل الذي هو أسـاس الفضائل ، وميزان السعادة القائم في هذا الوجود لخير البشر وتهذيب النفوس ، بإيقافها في وسط من الأعمال بين طرفي الإفـراط وهـو رذيلة ، والتفـريط وهو رذيلة أيضاً ، والفضيلة هي الوسط ، وهو العدل .

الدرس الحادي عشر

مَرْتبة العدل الأولى

العدل في الأحكام

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾

ماقامت الدول، وامتدت ظلال العمران، واجتمعت كلمة الشعوب ، وتوثقت عرى الاجتماع ، إلا بالعدل. فالعدل روح ، ووجود الأمم جثمان(١٥٣) ؛ فإذا فارق ذلك الروح هذا الجثمان ، انحل وتطايرت أجزاؤه في الفضاء ، ومحي اسمه من عالم الاجتماع.

ولما كان الإنسان مفطوراً على الطمع وحب المزيد من كل شيء ، فقَلَّ أن يستأثر بالسلطة إنسان ويقف بها عند حد محدود إلا من عصم ربك. لهذا أبى العدل أن تساس الشعوب بسياسة تضمن لهم بقاء الحياة المدنية إلا بالحكومات الشرعية ، لا بسلطة القوة والقهر التي تسوقهم إلى حيث لا يشعرون بالخطر إلا ساعة وقوعهم في مهاويه(١٥٤) .

وقد جاءت الشريعة الإسلامية منافية لمبدإ الحكومات الماضية ، والمؤسس معظمها على يد القوة في سياسة الشعوب ؛

وذلك تمهيداً لسبل الترقي بين الشعوب ، وتوطيداً لقاعدة العدل بين المسلمين ، على وجه بلغ من جلالة الوضع والترتيب ما تقصر[١٥٥] دونه عقول البشر.

جاء القرآن الكريم آمراً بالطاعة لأولياء الأمر إلى حد محدود ، لا يتجاوز معنى الصلة العادلة بين الحاكم والمحكوم ، ليتمكن بمقتضاها من تنفيذ أوامر الشرع وإقامة حدود الله ، بشرط أن لا تكون تلك الطاعة فيما يؤدي إلى الخروج عما أمر به الشارع[١٥٦] ونهى عنه ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾[١٥٧]

ولا يخفى أن قرن الطاعة لأولي الأمر بالطاعة لله وللرسول دليل على مافي ذلـك من المصلحـة للرعية؛ لأنا ندرك بالبداهة أن الطاعة لله وللرسول محض نفع راجع لأنفسنا فيما أمرا به ونهيا عنه كفعل الخير وترك الشر ، لهذا قال الله تعالى :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾[١٥٨]

وكـذا ولي الأمـر ، فإنـه لما كان مرتبطاً بالشريعة فيما يأمر به ، والشريعة لا تأمر إلا بعدل ، فقد وجبت له الطاعة من حيث وجبت لله وللرسول.

لهذا كانت الطاعة في الشريعة الإسلامية من أهم القواعد التى تأسست عليها دول الإسلام ؛ لا سيما طاعة الإمام العادل ، فإنها ركن من أركـان الإسلام ، يجمع المسلمين تحت لواء واحد ، ويصـون مجتمعهم عن عبث التفرق شيعاً في الملك والدين . ولكي لا تصرف مزايا هذه الطاعة في غير وجوهها النافعة، كأن يتذرع(١٥٩) بها إلى شيء من الظلم ، فقد أمر الله تعالى الحكام بالعدل ، وحذرهم من عاقبة الظلم ، فقال تعالى :

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾(١٦٠) ،

وقال تعالى :

﴿ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾(١٦١).

وقال تعالى في التحذير :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾(١٦٢)

ثم لكي تصان قوانين الشرع وأحكامه عن العبث ، وتتمشى على وتيرة(١٦٣) العدل ، قرر القرآن قاعدة التكافل العام على قيام شرائع الإسلام ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[(١٦٤)]

ولكي تكون المسؤولية عامة متبادلة ، ويتناصر[(١٦٥)] المسلمون على قاعدة التكافل العام ولا يتخاذلوا ، قال تعالى :

﴿ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[(١٦٦)] ،

وقال النبي عليه الصلاة والسلام : (كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته) هذا هو الإسلام، وهذا هو الدين القيم[(١٦٧)] الذى يشرعه الله للناس ليخرجوا من الظلمات إلى النور ومن العمى إلى الهدى . وإنما انعكس الأمر مع المسلمين الآن ، لإخلالهم بقاعدة التكافل العام، واشتغالهم باللغو[(١٦٨)] واللهو عن حقيقة الإسلام، وتفرقهم شيعاً في الملك والدين ، وإعراضهم عن الحق اليقين :

﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾[(١٦٩)]

(حواشي القسم الثاني)

(×) وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز «سورة الحديد / آية ٢٥.»

(٥٥) القوام : العماد أو الأساس الذي يقوم عليه الشيء.

(٥٦) سورة الحديد / آية : ٢٥.

(٥٧) الزجر : النهي والمنع بقوة وعنف.

(٥٨) التوغل : الذهاب بعيداً جداً.

(٥٩) المهامه : جمع مهمه ، وهي الأرض المقفرة.

(×) واعتصموا بحبل الله جميعاً .. الى الآية ١٠٣ من « سورة آل عمران »

(٦٠) المنن : جمع منة، وهي النعمة.

(٦١) تغالب : تصارع من أجل الغلبة.

(٦٢) تباين : اختلف.

(٦٣) وضح ـ يضح : اتضح ، أي ظهر وبان.

(٦٤) سورة الأحزاب / آية : ٦٢.

(٦٥) دال ـ يدول : انقلب من حال إلى حال.

(٦٦) زاغ ـ يزوغ : مال وانحرف.

(٦٧) الشيع : جمع شيعة، وهي الجماعة أو الفرقة الواحدة.

(٦٨) العرى : جمع عروة ، وهي ما يشد ويوثق به.

(٦٩) الأنعم : النعم ، جمع نعمة.

(٧٠) سورة الذاريات / آية : ٦٠.

(٧١) الجريرة : الجناية.

(٧٢) سورة النساء / آية ١٦٥.

(٧٣) حالَ حالٌ : تغير وضع.

(٧٤) آذن : أجاز وأباح

(٧٥) سورة فصلت / آية : ٣.

(٧٦) سورة الحجرات / آية : ١٠.

(٧٧) سورة آل عمران / آية : ١٠٣.

(٧٨) الذب . الدفاع والحماية.

(٧٩) سورة التوبة / آية : ١١١.

(٨٠) تضافر : تعاون.

(٨١) دوح : قهر واستتولى.

(٨٢) بسط ـ يبسط : مد ونشر.

(×) ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين «آية ١٠٨ من سورة يوسف».

(٨٣) نريد بهذا العلم الاجمالي علم الصحابة، لا العلم الاجمالي المصطلح عليه عند الأصوليين. (المؤلف).

(٨٤) سورة النساء / آية : ٥٩.

(٨٥) سورة ص / آية ٢٩.

(٨٦) لاجرم : لابد، لا محالة، حقًا.

(٨٧) تأصل : ترسخ وثبت.

(٨٨) الذود : الدفاع والحماية.

(٨٩) الحياض : جمع حوض، وهو ما يحمى ويدافع عنه.

(٩٠) سورة محمد / آية : ١٩ ـ إن التوحيد لا يتحقق إلا بالشهادتين معاً (شهادة ألا إله إلا الله وشهادة أن محمداً عبده ورسوله) فلا تقوم العقيدة الصحيحة إلا بإثبات

الوحدانية لله وبالرسالة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

(٩١) سورة يوسف / آية : ١٠٨ على بصيرة : على بينة و معرفة.

(٩٢) ضربوا : بنوا ، أقاموا.

(٩٣) النواصي : جمع ناصية ، وهي شعر مقدم الرأس . وأخذوا بنواصي الأمم ، أي أذلوها.

(٩٤) الهمم : جمع همة ، وهي العزم القوي.

(٩٥) الخلف : الجيل اللاحق من الأبناء والناس.

(٩٦) الحشو : الزيادة التى لا خير فيها.

(×) « فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وأتاه الله الملك والحكم . وعلمه مما يشاء ولـولا دفـع الله النـاس بعضهم ببعض لفسـدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » الآية : ٢٥١ من سورة البقرة.

(٩٧) المفضية : الموصلة، المؤدية.

(٩٨) الوازع : الرادع ، المانع.

(٩٩) صدم ـ يصدم : ضرب بجسده.

(١٠٠) التداعى : الانهدام والانهيار.

(١٠١) القوام : جمع قائم ، وهو الحارس والأمين على الشيء.

(١٠٢) سورة البقرة / آية : ٢٥١ الدفع : التنحية والإزاحة.

(١٠٣) اسم التفسير (مفاتيح الغيب).

(١٠٤) الإبرام : العقد والإحكام.

(١٠٥) الحدود : أوامر الله ونواهيه ، ومفردها حد.

(١٠٦) السابلة المارون :

(×) « أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا

وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » الآية ١٣٥ من سورة النساء.

(١٠٧) الدواعى : الأسباب ، ومفردها داعية.

(١٠٨) الخصيصة : الميزة.

(١٠٩) المزية : الفضيلة.

(١١٠) تسنى : أتيح وهيء.

(١١١) السياج : السور.

(١١٢) البارىء : الخالق.

(١١٣) الخالية : الماضية.

(١١٤) غلا ـ يغلو : جاز الحد.

(١١٥) الأحلام : العقول ، ومفردها حلم.

(١١٦) العاطلة : المنحطة الفاسدة.

(١١٧) الديان : المجازي والمحاسب ، وهو الله عز وجل.

(١١٨) التدني : الانحطاط.

(١١٩) تتجسم : تعظم وتقوى.

(١٢٠) التصريف : التسريح وعدم التقييد.

(١٢١) المنان : الكثير العطاء ، وهو من أسماء الله الحسنىٰ.

(١٢٢) قوض : هدم.

(١٢٣) الصروح : جمع صرح ، وهو البناء العالي.

(١٢٤) التحيل : الاحتيال.

(١٢٥) التسلسل : التتابع بشكل متصل مرتبط كالسلسلة.

(١٢٦) ناهيك : دع ، اترك.

(١٢٧) الرضوخ : الخضوع.

(١٢٨) الضعة : الدناءة والذل.

(١٢٩) الشمم : الكبر والإباء والأنفة.

(١٣٠) المناصحة : تبادل النصح.

(١٣١) التقريع : التوبيخ والتعنيف.

(١٣٢) الجائر : الظالم ، غير المنصف.

(١٣٣) سورة النساء / آية : ١٣٥ قوامين : قائمين ، حافظين.

(١٣٤) التحري : البحث والطلب.

(١٣٥) تكافل : تعاون.

(١٣٦) حرية : جديرة.

(١٣٧) المسالك : السبل ، ومفردها مسلك.

(١٣٨) نزغ - ينزغ : أغرى وأفسد.

(١٣٩) الدخيل : الأجنبي الغريب.

(١٤٠) نزع - ينزع : مال واتجه . المنازع : المقاصد ، ومفردها منزع.

(١٤١) الوهن : الضعف.

(١٤٢) سورة الرعد / آية : ١١.

(×) « الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » الآية : ١ من سورة ابراهيم.

(١٤٣) رسف : مشىٰ مثقلاً بالقيود.

(١٤٤) تخبطه : أفسده.

(١٤٥) الأزرق : الشديد العداوة.

(١٤٦) الترجيح : التغليب والتفضيل.

(١٤٧) سورة ابراهيم / آية : ١.

(١٤٨) المداهنة : المصانعة والنفاق.

(١٤٩) سورة الإسراء / آية : ٢٩ مغلولة : مقيدة ، وهى كناية عن البخل الشديد. محسوراً : نادماً مهموماً. لا تبسطها : لا تمددها مبذراً.

(١٥٠) سورة النساء / آية : ٣.

(١٥١) سورة الفرقان / آية : ٦٧ لم يقتروا : لم يبخلوا بخلاً شديداً. قوماً : وسطاً بين الطرفين.

(١٥٢) سورة البقرة / آية ١٩٥ التهلكة : الهلاك.

(×) « إن الله يأمركم إن تؤديوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا » الآية ٥٨ من سورة النساء ».

(١٥٣) الجثمان : الجسد.

(١٥٤) المهاوي : جمع مَهْوَاة ، وهي المكان العميق القعر والغور.

(١٥٥) قصر ـ يقصر : عجز.

(١٥٦) الشارع : واضع الشريعة أو صاحبها ، وهو الله تعالى في قرآنه ، والرسول الكريم في سنته.

(١٥٧) سورة النساء / آية : ٥٩.

(١٥٨) سورة الحشر / آية : ٧.

(١٥٩) تذرع : اتخذ ذريعة أو وسيلة.

(١٦٠) سورة النساء / آية : ٥٨.

(١٦١) سورة المائدة : آية : ٨.

(١٦٢) سورة المائدة : آية : ٤٧.

(١٦٣) الوتيرة : الطريقة المطردة.

(١٦٤) سورة آل عمران آية : ١٠٤.

(١٦٥) تناصر : نصر بعض بعضاً.

(١٦٦) سورة الشورى آية : ١٣.

(١٦٧) القيم : السديد الصائب.

(١٦٨) اللغو : أخلاط الكلام.

(١٦٩) سورة البقرة / آية ١٨١.

القسـم الثـالث

فـي ذكـر المقومـات

الدرس الثاني عشر

مَرْتبة العدل الثانية

العدل في التساوي والحرية

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾(×)

متى استقر العدل بين الناس ـ على الوجه الذي ذكرناه ـ ورُدَّتِ الحقوق ، وأقيمت الحدود ، وأُمِّنَتِ السبل؛ تبسط الناس في مناحي الحضارة(١٧٠)وجنحوا إلى مد بساط العمران. وإنما يتأتى لهم هذا بالتعاون والتناصر، سيما إذا كانت الدهماء(١٧١) فرقاً غير متناسقة في المشارب(١٧٢)، ولا منتسقة(١٧٣) في عقد الوحدة الجنسية أو الدينية ، يحكم بعضها الآخرين ؛ فأجود ما يكونون إليه التآلف والتحابب، ليتأتى لهم التناصر والتعاون، ويندفع(١٧٤) عنهم خطر التناكر(١٧٥). وإنما يندفع هذا الخطر إذا وجد العدل بالحرية والمساواة، وبُنِيَ عليهما أساس التعارف، المعني في قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا

﴿ وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ (176)

وفي قول النبي عليه الصلاة والسلام : (لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى).

وهذا ما يعبر عنه بالحرية الشخصية . وهو ـ كما أشرنا إليه ـ ثاني مراتب العدل الثلاث في الإسلام ، وهو يرتبط بالمرتبة الأولى ارتباطاً يتم به محو آثار العبودية لغير الله سبحانه وتعالى من نفوس الخلق ، ويشعر بوجوب المعاشرة والمخالطة والعدل بين الناس في الحقوق التي يشترك بها أبناء الوطن الواحد بلا استثناء ؛ فلا يتفاخر بعضهم على بعض ، أو يستأثر بعضهم بحقوق بعض ، أو يستهين كبيرهم بالصغير ويتعدى غنيهم على الفقير ؛ بل يكون حسن المعاملة والمحافظة على الحقوق شاملاً عاماً متبادلاً بين الناس من سائر الطبقات، ولا يستثنى من ذلك غير المسلم إذا ضُمَّ والمسلم في وطن واحد أو اشتركا على منفعة واحدة . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعامل مع يهود المدينة ، ويحسن مواطنتهم ، لنقتدي به في حسن معاملة الناس ومعاشرتهم. وكان الصحابة رضوان الله عليهم يتباعدون في بادىء الأمر عن مجاملة كفار (قريش) ولو كانوا من ذوي قرباهم فنبههم الله سبحانه وتعالى إلى أن ليس في معاملتهم والإحسان إليهم بأس، ورغّبهم بأن(177) يبروهم(178) ويقسطوا إليهم ، في قوله تعالى :

﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (١٧٩)

فحسن معاملة الناس ، ومجاملتهم ، واعتبار كونهم جسماً واحدا يحيا بحياة أعضائه ، أمر قررته الشريعة الإسلامية وجاء به القرآن. فينبغي أن تعلموه ؛ ولو لم يكن فيه من الأمر بتبادل حسن المعاملة غير ما تقدم، وغير قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ (١٨٠)

لكفى به موعظة وذكرى للمؤمنين.

الدرس الثالث عشر

تعريف الحرية

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(×)

الحرية من حيث هي ، هي استقلال العقل والإرادة ، وانطلاق الإنسان من قيد العبودية لأي شيء ، إلا الله سبحانه وتعالى فهي واجبة له سبحانه ، لأنه خالق الإنسان وواهب العقل . وقد قسموا الحرية ، بالتعريف الأعم ، إلى قسمين : الحرية العمومية والحرية الشخصية .

فأما الحرية العمومية ، فهي تكافؤ الأمة بالحق في مشاركة الحكومة بالرأي ، وتكافلها على قيام الشرائع والقوانين ، حتى لا يعبث بها عابث ، أو تصرف على غير وجهها المقصود تبعاً لأغراض النفوس وغلبة الشهوات عند الحكام . وقد قررتها الشريعة الإسلامية وجاء بها القرآن ، كما رأيتم في الدرس الحادي عشر. وما بلغ بالمسلمين في الصدر الأول مبلغاً من القوة والمدنية والمجد ، يقف دونه النظر حائراً، والإنسان مقراً بفضل شريعة، وضعت هذه القاعدة منذ ثلاثة عشر قرناً للمسلمين ، ولم

يتوصل إليها غيرهم من الأمم إلا في هذه القرون الأخيرة ، بعد مكافحات شابت لها نواصي[١٨١] الولدان ، وانصبغت هامة[١٨٢] المغرب بنجيع[١٨٣] الإنسان . ومع ذلك لم يصلوا إلى ما وصل إليه المسلمون في أوج مجدهم.

وأما الحرية الشخصية ، فهي عبارة عن مبدإ المساواة الذي مر ذكره ، وفيه أمن الإنسان على نفسه وعرضه وماله ، وتمتعه بسائر حقوقه الشخصية التى تخولها[١٨٤] له طبيعة الاجتماع ، باعتبار كونه عضواً عاملاً فيه . وقد توسع بهذا المبدإ دعاة الحرية الجديدة في هذا العصر من الغربيين ، فقالوا، للإنسان أن يعمل ماشاء بإرادته على شرط أن لا يتعدى ضرره إلى سواه؛ وهو توسع ينافي مبدأ العدل في الحرية الإسلامية ، لما عقبه من الإفراط الذي دعا إلى التفريط بالفضيلة في الغرب ، حتى انطلقت النفوس في ميدان الشرور ، وانغمست في حمأة[١٨٥] الرذائل ، تحت اسم الحرية وبقيد أن لا يتعدى ضرر الإنسان إلى سواه؛ وكيف لا يتعدى ضرر من يحمل أمراض الفسق والفجور والفاحشة وسائر أنواع المنكر ، ويمشي متهتكاً[١٨٦] تحت اسم الحرية ؟ وكل هذه أمراض وبائية[١٨٧] ليس أسرع من تفشي ضررها في ربوع المدنية، وفتكه فتكاً ذريعاً[١٨٨] في الإنسان. ولقد أحس الأوربيون ببلاء الإفراط بهذه الحرية، وما تأتىٰ عنها من المضار التي ، أقلها انتشار الفوضىٰ والاشتراكية في ربوع المدنية وتهديدها لها

بالخراب والتدمير ؛ وأخذوا يعملون الرأي في إيجاد طريق للخلاص من هذا البلاء ؛ وأنّى[189] يهتدون إلا بالدين الإسلامي ، المبني على الاعتدال في كل شيء ، المرشد إلى سائر الفضائل والكمالات التي ترتبط بها سعادة البشر ، ويقوم بها التمدن الحقيقي للشعوب ؟

اللهم ! نحمدك ، ونشكرك على أن جعلت هذه الأمة الإسلامية أمة وسطاً[190] ، ليشهدوا على الناس ، ويكون الرسول عليهم شهيداً . ونسألك أن ترشدها للعمل بقرآنك ، واتباع سنة نبيك صلى الله عليه وسلم ، لتعود على بدئها، وترجع ذاهب مجدها الذي إنما ذهب لما فَرَّطَتْ في جنب الله . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .ء

الدرس الرابع عشر

الحرية الإسلامية والحرية الغربية

وهل يستويان

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾(×)

علمتم أن الحرية هي استقلال العقل ، وانطلاق الإنسان من قيود الاستعباد المطلق . ومتى أخذت الحرية من ذلك وسطاً بين طرفي الإفراط والتفريط ، حملت النفوس على الغَيْرَة ، ونبهت فيها حب العزة والكرامة .

والنفس الكريمة تأبى الإحجام(١٩١) ، وتنشأ على الإقدام ؛ فتطلب جلائل الاعمال(١٩٢)، وتتنكب عن طرق الدنايا، وتطرح راحة الإخلاد(١٩٣) إلى المسكنة والذل ، ولا يصدر عنها أثر من آثار الحرية إلا مسبوقاً بالروية ، مقروناً بالفضيلة ، دالًّا على الثبات ، لما تأصل فيها من الرزانة الناشئة عن عزة النفس. إذ من توابع العزة، الرزانة والثبات ، وهما حياة الأمم ومنبعث مجد الإنسان ؛ وعكسهما الرعونة والطيش ، وهذان الخلقان يلازمان طرف

الإفراط في الحرية ، كما يلازم طرفه الآخر ـ وهو التفريط ـ الذل والمسكنة ؛ والوسط بينهما هو الرزانة والثبات ، كما تقدم .

ولنضرب لكم مثلاً : بعض الشعوب الأوربية ، الذين تناهى[١٩٤] عندهم الآن إفراط في الحرية ؛ فقد يصدر عنهم من الضوضاء والجلبة[١٩٥] عند كل حادث سياسي ، مثلاً ، ما لا يصدر عن الشعوب المعتدلة بالحرية الذين إذا فتحت لهم الممالك أو صُبَّتْ عليهم الصواعق ، فلا تسمع لهم إلا همهمة[١٩٦] أو حسيساً[١٩٧] . وأما المفرطون في الحرية ، فمثلهم مثل الأمم الشرقية التي فقدت مزايا الاستقلال العقلي وسيقت بعصا القهر سوق الأنعام[١٩٨] ؛ وناهيك به ذُلاً قاتلاً للنفوس ، مميتاً للهمم ، مفقداً للإقدام ، نشاهده الآن بالعيان .

لهذا جاء الإسلام هادماً لاركان الاستبداد ، مرشداً لحرية العقل ، ليحمل المؤمنين على عزة النفس الداعية إلى الرزانة والثبات ، الباعثين على العمل الممهد لسبل المجد والسؤدد. وقد نال المؤمنون من ذلك حظاً لم تنله أمة من الأمم ، حتى بلغوا من العزة مكاناً يكفي في التنبه إليه قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١٩٩]

وإنما انحطوا الآن إلى درك[٢٠٠] الضعة ، لما علمتموه من أن العزة ملازمة للحرية ، وقد فرطوا بها وخضعوا للاستعباد ، فاتخذوا

أولياءهم[٢٠١] أربـابـاً من دون الله ، ومن يدع مع الله إلّهـا آخـر فحسابه على ربه :

﴿ وَلَا يَجِدُ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[٢٠٢]

وبالإجمال. فالحرية حياة الأمم ، ودعامة التمدن ، وأساس الترقي العقلي في هذا الوجود البشري . وشرطها الاعتدال ، وبه جاء الإسـلام ، وبهمـا عمـل المسلمون زماناً ، قامت لهم به الـدول ، وشيدوا دعائم العمران ، ونشروا راية العلم ، وأخذوا بجماع[٢٠٣] القوة؛ فهدموا بها بنيان الاستعباد ، وحطموا صروح الاستبداد؛ فملكوا قلوب البشر ، واجتمع تحت رايتهم الشعوب على اختـلاف عناصرهم وتباين مشاربهم ، متنافسين في سبيل الوحدة الإسلامية التى هي أُسُّ[٢٠٤] الحرية البشرية، المعنية في قول الـرسول الأكرم والنبي الأعظم صلى الله عليه وسلم : (لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوىٰ) .

بهـذه الحـرية قام الإسـلام ، وسـاس[٢٠٥] المسلمون مئات المـلايين من البشـر؛ لا يميزون في الحق أصنـاف النـاس وأجنـاسهم وألـوانهم ، بل كلهم في الحقـوق سواء ، وللحرية أبنـاء. ويبلغ من شعور المؤمنين يومئذ بفضل هذه الحرية : أن (يهودياً) ادعى أمام عمر بن الخطاب رضيَ الله عنه علىٰ عليٍّ بن أبي طالـب رضي الله تعـالى عنـه بحق له قِبَلَهُ[٢٠٦]. وكان علي بحضرة عمر ، فقال له : يا أبا الحسن ، ساوِ خصمك ، فظهر

على وجه علي كرم الله وجهه أثر الغيظ (٢٠٧) ، ثم قام وجلس في جانب خصمه . وبعد انتهاء المحاكمة ، قال الخليفة عمر لعلي رضي الله تعالى عنهما : لعلك اغتظت من قولي قم يا أبا الحسن ساوِ خصمك ، قال : لا ، وإنما اغتظت لأنك كنيتني أمام خصمي ، فكان ينبغي أن تقول : قم ، ياعليّ ، ساوِ خصمك . وقد كان النداء بالكنية عند العرب من علائم التفخيم .

بلغ الشعور بفضل الحرية والمساواة عند المؤمن ، على عهد الحرية الإسلامية ، أن لا يقبل التفخيم ، مهما كان عظيماً في قومه ، شريفاً في نفسه ، كعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، في موقف لا يسود فيه إلا العدل ، ولا ينظر فيه إلا للحق .

فليت شعري ! ماذا يقول المنصفون من دعاة الحرية الأوربية وأنصار المدنية الغربية في هذا العصر عن حريتهم الجديدة ودعواهم العريضة ؟ هل فيها شيء من هذا العدل ؟ هل قُطِّعَتْ قيود الاستبداد ؟ هل تساوى فيها بقية الشعوب الخاضعين للسيطرة الأوربية ، وعلى الأخص المسلمون منهم ، كما كان اليهودي والنصراني والعربي والعجمي والأبيض والأسود سواء في الحقوق ، على عهد الحرية الإسلامية وإبان السطوة العربية ؟ لا لعمر الحق . لا يقول ذلك المنصفون ، لأن العيان أعظم شاهد وبرهان على أن الحرية الإسلامية والحرية الغربية لا يستويان ،

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾[٢٠٨] ،

وكيف يستوي ما بني على أساس الدين الإسلامي المتين والنهج[٢٠٩] القرآني القويم ، وما بني على التصنيع والتلبيس[٢١٠] التابع لأغراض النفوس ؟

فاللهم ، إن حرية كحرية الغربيين الآن ، يفرق فيها بين الشرقي والغربي والمسلم والنصراني بل البروتستاني والكاثوليكي ، والحق فيها للقوي يسحق بقوته الضعيف ويستهين بحقوق من عداه ؛ لحرية حرية[٢١١] بالنبذ[٢١٢] والاستهجان[٢١٣] لأنها استعباد تأباه الإنسانية والإنسان ، ولا ينطبق على قانون الحرية في كل عصر وزمان .

الدرس الخامس عشر

مرتبة العدل الثالثة

العدل في المعاملات بين الناس

﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ (×)

علمتم مما سبق بيانه ، أن العدل في الشريعة الإسلامية مطلوب في سائر أعمال الإنسان ، وأن أهم مراتب العدل ثلاث ، استوفينا الكلام على مرتبتين منهن ، وها نحن نتكلم على المرتبة الثالثة ، وهي العدل في معاملة الناس بعضهم مع بعض ، فنقول.

العدل في معاملة الناس بعضهم مع بعض ، يكون في أمرين : بالفعل واللسان . والمراد من الأمر الأول اجتناب الغِش في تبادل المنافع التجارية ، كالبيع والشراء ؛ ومن الأمر الثاني اجتناب الغِشِّ باللسان ، وفيه المداهنة والخيانة والتغرير[٢١٤] وغير ذلك من أنواع الغش الذميم التي هي أمراض تنهك[٢١٥] المجتمات ، وتذهب بحياة الشعوب ؛ والمقدم عليها ظالم يضر

بنفسه وبأبناء جنسه. ولنتكلم قليلاً على الأمر الأول، ثم نأت بعده على الأمر الثاني؛ كل ذلك بطريق الإجمال الذي يناسب المقام، إذ دروسنا لا تسع التفصيل بالتمام.

لا يخفى أن تبادل المنافع التجارية بين الناس هو عبارة عن عِوَضٍ[٢١٦] يستحقه المستعيض[٢١٧] في نظير[٢١٨] عوضٍ يستحقه المعيضُ[٢١٩]. كالتاجر إذا باعك من القماش مقداراً معلوماً؛ فإنه إنما يبيعكه في نظير مقدار من الدراهم معلوم، يستحقه قِبَلَكَ كما تستحق أنت قِبَلَهُ ذلك المقدار من القماش في نظير دراهمك استحقاقاً حتمياً، يوجبه الشرع، وتقضي به سنة الوجود البشري القائم على أساس تبادل المنافع التى هي نتيجة العمل المتبادل أيضاً ودعامة الحياة الاجتماعية بين أصناف الإنسان.

ويشترط في هذا التبادل التعادل في القيمة، وإن اختلف النوع. فمن أخل من المتبادلين بهذا التعادل، بأن غش أحدهما صاحبه بأصل القيمة، كبخس[٢٢٠] الوزن، وتغيير النوع بأدنى، أو عمد الآخر إلى دفع الثمن قبله؛ ومن تعمد، فهو ظالم غاش، بل سارق محتال لا فرق بينه وبين اللص إلا بكون هذا مرتكب جناية ربما دفعه إليها الاحتياج والفقر، وذلك مرتكب جناية لم يدفعه إليها سوى طمع النفس وحبها للظلم، وهو ظلم مذموم، وعمل مضر هادم لأعظم ركن من أركان المجتمع المسلم، وهو الثقة التى يتوقف عليها نظام سير المعاملات

الدنيوية. فإذا دخل الغش في هذه المعاملات ، فقدت الثقة من نفوس الناس بعضهم ببعض ، فيقف لذلك دولاب التجارة ، فتبور[٢٢١] الصنائع ، وتقل المكاسب فيحتال الناس على أسباب المعيشة ، ويتهالكون[٢٢٢] على تحصيل القوت[٢٢٣] من غير طرقه المشروعة ، فتفسد أخلاق الأمة ، وتنحط لقلة العمل مداركها ، وينتهي ذلك بضعف قوتها ، وتفريق مجتمعها ، بل وفقد حريتها واستقلالها ، وتحكم يد الأجنبي فيها ؛ كما نشاهد ذلك في المشرق الآن ، فلا يفتقر لإقامة الدليل والبرهان.

لهذا جاء الشرع الإسلامي آمراً بالعدل في المعاملة ناهياً عن الغش فيها بأشد الزواجر[٢٢٤] ، فقال الله تعالى في القرآن الكريم :

﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾[٢٢٥] .

وقال تعالى في معرض الزجر :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾[٢٢٦] ،

وقال تعالى :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[٢٢٧] ،

وقال تعالى :

﴿ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾[٢٢٨] ،

وقال النبي صلىٰ الله عليه وسلم : (ليس منا من غش)[٢٢٩] . وهذا يفيد خروج الغاش من عداد المؤمنين ، والعياذ بالله تعالى ، وفيه من المبالغة في الزجر عن الغش أعظم عبرة للمؤمنين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، والعاقبة للمتقين .

لهذا وجب اجتناب الغش في المعاملة بسائر أنواعه ، لما فيه من الضرر على الناس بالعموم وعلى الغاش بالخصوص ؛ لما أن ثروة الفرد الواحد في كل مجتمع إنما ترتبط بثروة الباقين ، فمتى قلت الثروة عند المجموع ، فإنها بالطبع تقل عند الفرد . ومن أسباب فقد الثروة ـ كما تقدم ـ تفشي مرض الغش بين الأمة ؛ وأحسن دواء له محاسبة المرء نفسه في معاملته مع الناس ، ومراقبته الله تعالى في ذلك ، بحيث يكون له من نفسه داع يدعوه إلى تقوى الله ومعاملة خلقه بالعدل ، عملاً بقوله تعال :

﴿ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[٢٣٠] .

الدرس السادس عشر

المـداهنـــة

﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (×)

قلنـا : إن اجتنـاب الغش باللسـان ، هو من جملة العـدل في المعـاملة . ومن ذلـك ، المداهنة والخيانة والتغرير ؛ فإن هذه أمـور أكثـر ما تكون للغش باللسان ، وصاحبها إنما يمكر بهذا الغش مكراً يحاول به جر مغنم لنفسه ، وإن أضر بسواه ،

﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (٢٣١)

وأول تلك السيئات المداهنة ، وهي نوع من النفاق أو النفاق بعينـه . والغش فيهـا هو من جهة ما يراد بها من التملق(٢٣٢) ، الكـاذب ، ومدح الإنسان بما ليس فيه استرضاء له واستجلاباً لخاطره ؛ وفي هذا من الضرر ما يربو(٢٣٣) على كل ضرر سواه ، إذ إنه يوجب استشعار المداهن الكمال بنفسه وإغضاءه(٢٣٤) عن كل نقيصة فيه ، ربما إذا علمها من نفسه بادر(٢٣٥) إلى إزالتها والتحول عنها إلى ما هو أكمل منها . وفضلاً عن هذا فإن سرور المـرء بالمـداهنة ، ربما يؤديه إلى اعتبارها حسنة في نفسها ،

فيداهن من هو أعلى منه ؛ وهكذا تتسلسل هذه الرذيلة في سائر طبقات الأمة حتى يعم بها البلاء ، وتفسد بسببها الأخلاق .

وربما بلغت المداهنة عند بعض الطبقات أحياناً أقصى درجات النفاق ، فيتقرب بها الصغير إلى الكبير ، ولو بأن يضر أهله وولده أو بني وطنه في سبيل استرضاء المنافق له ؛ وفي هذا من الغلو[٢٣٦] في الدناءة والمغالاة[٢٣٧] في الغش ما يفضي[٢٣٨] أحياناً إلى إيغار[٢٣٩] الصدور ووقوع الفتور بين الأمير والمأمور والحاكم والمحكوم ، فتنحل عروة التآلف ، ويُشَوَّشُ نظام الاجتماع . كل ذلك بعبث المنافقين وغش المداهنين ، الذين أنذرهم الله بالخزي[٢٤٠] في الدنيا والعذاب في الآخرة ، وحسبهم من ذلك الذل والعار قوله تعالىٰ :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[٢٤١]

فينبغي على كل مؤمن بالله خائف من عقابه ، وكل محب لوطنه حريص على شرفه ، اجتناب المداهنة والنفاق ، لأنهما غش ، لا يرضاه الإنسان الكامل ، وتأباه المروءة . كما ينبغي الاحتراس من المداهنين ، وتدارك شرهم عن أن يسري في الأمة بعدواه الخبيثة ، بنبذهم نبذ النواة ، وعدم الرضا بغشهم في أي حال من الحالات ، اقتداء بالصحابة الكرام ، الذين بهم قام الإسلام ، وبعملهم يقتدي المؤمنون بعد كتاب الله ورسوله . فقد ذكر (الغزالي) في (الإحياء)[٢٤٢] ، أنه قيل لبعض الصحابة : لايزال

النـاس بخير ما أبقاك الله فيهم ، فغضب وقال : إني لأحسبك عراقياً[٢٤٣] . وإن بعض الخلفاء الراشدين ، سأل رجلاً عن شيء فقال : أنت ـ يا أمير المؤمنين ـ خير مني وأعلم ، فغضب وقال : إني لم آمرك بأن تزكيني[٢٤٤] . وإنها ـ والله ـ لشيم شماء[٢٤٥] ، ونفوس تأبى أمثال هذه النقائص . وجدير بكل مؤمن القلب طاهر الخلق ، أن يعرف من نفسه مالا يحتاج للعلم به من سواه .

الدرس السابع عشر

الخيانة والتغرير

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾(×)

كل من غش باللسان لأمر يريد به النفع من حيث يضر بسواه ، فهو خائن ، كالمداهن والمغرر ؛ وقد علمتم من مضار المداهنة مافيه الكفاية ، وأما التغرير فأنواعه كثيرة. منها أن يغرر البائع بالمشتري بسلعة ، يصفها له بأنها من أجود ما تكون من نوعها ، مثلاً ، إغراء له على أخذها ، وتكون هي دنيئة رديئة في الأصل ، وإنما قصد المغرر بيعها بثمن الجيدة ، ولو أضر ذلك بالمشتري . ومنها أن يُحَسِّنُ لك الإنسان عملاً ، ربما كان في نفسه قبيحاً ، وإنما هو يحسنه لك ليكون له من ورائه نفع ذاتي ، فلا يبالي ، أضر ذلك العمل بك أو نفع ؟ ومنها ، وهو أشد أنواع التغرير ظلماً وأشرها عاقبة ، غش الأمة بما يضلل أفكارها ، أو يدس في كتبها من الأضاليل[٢٤٦] المنافية لقواعد الدين الصحيح ، القاتلة لإحساسات الناس ، المشوِّشة على العقل ؛

وأنواعها كثيرة ، وإنما هي بدع[٢٤٧] ابتدعها في الدين أناس ، لم يريدوا بهـا وجه الله بل عرض[٢٤٨] الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون ؛ والتاريخ شاهد على ذلك ، ولكن أكثر الناس لا يشعرون ،

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[٢٤٩].

ومهمـا بحثنـا عن أسبـاب التقهقر العقلي والديني في الأمة الإسـلامية ، لانجد له سبباً أعظم من التغرير ، الذي أثر آثاراً قبيحة في عقول الأمة. ومن أشد العقائد خطراً الاعتقاد بالجبر أو ما يقرب منه ، لتجريد الإنسان من كل إرادة واختيار ، مما ينافي حكمة الله تعالى في خلق الإنسان وتفضيله بالعقل والعلم والإرادة على سائر الحيوان ، لاسيما وأن الله تعالى قال :

﴿ عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[٢٥٠]

ولبيان تشريف الإنسان بذلك ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[٢٥١]

فكيف يمنح الله سبحانه وتعالى الإنسان قوة العلم والتفضيل على سائر الحيوان ، ويشرع له الشرائع والأديان ، ويكلفه للعبادة ، ثم يسلبه الإرادة ؟ اللّهم ، إن أناساً يضللون عبادك بمثل هذا التضليل بعد أن قلت :

﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾(٢٥٢)

لأناس ظالمون لأنفسهم غاشون للناس ،

﴿ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴾(٢٥٣)

لهذا ينبغي على العاقل أن لا يبادر إلى كل ما يسمعه أو يراه ، فيحمله على محمل الصدق ؛ بل يمعن النظر ، ويبحث عن الدليل في كل شيء يرد على العقل ، كي لا يغرر بنفسه ويلقيها فيما لا تحسن عقباه ؛ إذ العقل آلة تتناول ما ثبت بالحس والبرهان ، وتترك ما وراء ذلك لعلم الخالق الديان ؛ ولهذا جاء في قوله تعالىٰ :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾(٢٥٤)

والرسول إنما أتانا بشريعة سمحة وهدى وكتاب مبين ، لاينهىٰ عن طلب العقل للدليل ، لاطمئنان الوجدان للحق ، واعتماد

العقول على البرهان ؛ بل يأمر بذلك ، ويُقرِّعُ(٢٥٥) التخريص(٢٥٦) والجدال بغير علم ، ويدعو إلى الحق بالبرهان ، ويصف المؤمنين بكونهم لا يعملون إلا على بينة من كل أمر . بل والكتاب كله معجزة من المعجزات ، التي تأيدت بها رسالة نبينا عليه الصلاة والسلام ؛ هذا ، وهو يذم أهل التضليل ، وينهى عن استماع اللغو من القول ، ويشير إلى أن أهله معروفون بالتحريف موصوفون ، وذلك بقوله تعالى :

﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾(٢٥٧) .

وأما بقية أنواع التغرير فكثيرة ، والكلام عليها طويل ، وما مر معنا فيه الكفاية . والتغرير ، من حيث هو ، ظلم وعدم أمانة ، وفاعله خائن أثيم(٢٥٨) ، بعيد عن مراتب الشرف والذمة(٢٥٩) ، مكروه من الله ومن الناس والله سبحانه وتعالى نهى المؤمنين عن الخيانة ، وأمرهم بالصدق والأمانة ، فقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٢٦٠)

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾(٢٦١)

وما إخال(٢٦٢) إلا أن كل مستمع منكم لمجرد اسم الخيانة ،

يشعر بحس غريب ، ينبه فيه سائر عواطف الاشمئزاز من هذا الاسم الشنيع الذي تأباه النفوس الشريفة ، ويتألم منه السمع ، فكيف بالعمل نفسه ؟ إنه أشد تنكيلاً بالنفس ووخزاً للضمير ؛ وقانا الله جميعاً مزلة(٢٦٣) القدم فيه ، وعاقبة الندامة منه، إنه مجيب الدعاء.

الدرس الثامن عشر

الثبـات والصـبر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

إن الدنيا ميدان لفعل الخير، تتسابق فيه الهمم ، وتتبارى عليه الأمم ؛ فمن سبق ، فار بالحسنىٰ ، وكانت يده في هذا الوجود هي العليا ؛ ومن قَصَّرَ ونىٰ [٢٦٤] كانت يده هي الدنيا ، وعاش عيشة الأذل الأدنىٰ . وإنما ينال السبق بالثبات والصبر وعدم التقلب والضجر ؛ وليس في الوجود عمل إلا ويحتاج إلى الثبات ، بنسبة ما فيه من المشاق ، وما يحول دونه من العوائق التي لا يزيلها إلا المثابرة عليه والثبات له .

وفي الحقيقة ، فإنه ما أفاض نور العقل على نفس الإنسان من هدى ؛ وما حرك الآمال ، فدفع بالرجال إلى جلائل الأعمال ، فتناولوا أسرار الطبيعة من كبد السماء ، واستخرجوا كنوز الغنىٰ والثروة من بطون الأرض ؛ وما عمر الأرض وأحياها ، وشيد دعائم

المدنية وبناها ؛ وما مكن في النفوس رغائب الحياة ، فتنافست بمحاسن الأعمال ، واستمسكت بعروة الجد ، فبلغت منتهى الجمال ؛ وبالجملة ما قام لوجود البشر وجود ، وَقَرَّبَ طريق السعادة للإنسان ، كالثبات الثبات ، نعم الثبات الثبات ، وفي المثل ، « من ثبت نبت[٢٦٥] ، ومن صبر ظفر » وكيف لا يظفر الصابر برغائبه وينال ذو الثبات متمناه [٢٦٦] ، وقد قال الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾[٢٦٧]

وقول الله هذا خير منبه للمؤمنين على الثبات والصبر .

وإذا بحثنا في تاريخ الأمة الإسلامية ، نجد أن الصبر والثبات ، كانا من أهم دواعي سيادتها على الأمم وترقيها في معارج المجد ؛ وهكذا الحال أيضاً في كل أمة كان الثبات رائدها وقوة العزيمة سندها . وهل ظهر أفراد الرجال إلا بالثبات ؟ وهل خدمت المدنية قوة كالاختراع والتفنن بالابتكار ؟ وإنما هي قوة لا تصدر عن غير أهل الثبات على الحق والدين القويم ، لما يلاقونه في سبيل العمل من المصاعب والمتاعب التي ، لو خالطها شيء من الملل والتردد ، لما نجح أربابها ، ولخاب عمل أصحابها ، ولكن بالثبات بلغوا أقصى الغايات .

ولقد بلغ الثبات عند علماء بعض العلوم في القرون المتوسطة الهجرية ، أن صاروا يكتبون علومهم بالخطوط العبرانية ، مع أنها في اللغة العربية ، وذلك لكي يدفعوا عنهم أذى الاضطهاد الذي كانوا يلاقونه من الملوك في تلك العصور(٢٦٨) . وبلغ الثبات أيضاً عند علماء المغرب في بعض العصور النصرانية ، أن كانوا ينالون من الملوك أنواع العذاب ، ويساقون إلى السجون بغير حساب ؛ ومع ذلك كانوا لا ينفكون عن المطالعة والبحث ، ولو كان فيهما المنون (٢٦٩)، ويرسلون بأشعة أفكارهم من ظلمات السجون .

والثبات إنما هو قوة في النفس ، تحتاج إلى سبق الإرادة وصدق العزيمة ، مع التصميم الذي لا يشوبه(٢٧٠) التردد في الرأي . ولهذا وردت الإشارة في قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾(٢٧١)

فإن من توكل على الله حق توكله في أمر يعزم عليه ، ولم يخالج ضميره بعد التوكل أدنى تردد فيما عزم عليه ، فحق على الله أن يسهل له سبيل الوصول إلى متمناه ، والله مع الصابرين .

الدرس التاسع عشر

الاعتماد بعد الله على النفس

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾(*)

اعلموا أن الله سبحانه وتعالى ، فطر الناس على فطرة ، هي قوة طبيعية متهيئة من أصل الخلق ، للتلون بما يعرض عليها من الصور في بدء النمو العقلي والجسمي ، فتنطبع عليها أشد الصور التصاقاً بها ومروراً عليها ؛ ومن ثم يتولد عن هذه الفطرة[٢٧٢] من الأعمال والأخلاق في أطوار الحياة البشرية صور ، كلها تستمد من أصل واحد ، وهي الصورة الأولى ؛ ولهذا يشير الحديث النبوي الشريف : (ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه[٢٧٣] ، كما تنتج البهيمة بهيمة عجماء)[٢٧٤] .

ومن المعلوم أن الإنسان مستعد للترقي بالطبع . فهذا الاستعداد ، هو عين تلك القوة الطبيعية التي خلقها الله في

الإنسان ، وفطره عليها . فإذا عرض لها في بدء النمو العقلي ما يصرفها إلى الكفر، كفر صاحبها ، أو إلى الإيمان آمن ، أو إلى النشاط والعمل نَشِطَ وَعَمِلَ ، أو إلى الكسل كَسِلَ ، أو إلى سوء الخلق ساء خلقه ، أو إلى حسن الخلق حَسُنَ خلقه ؛ وهكذا كل ما عرض لهـا في بدء النمـو العقلي والتصق ، انصرفت إليه ، ونشأت عليه.

وقد مر على الإنسان أجيال متطاولة ، كان يعلو ويَسْفُلُ[٢٧٥] فيها بنسبة حال التربية التى كانت تنشأ عليها فطرته من خير أو شر. وبلغ ذلك في الإنسان في بعض الأحيان ، أن كان يخرج عن كل حول[٢٧٦] وقوة ، لاعتقاده بصارف يصرفه عن المظاهر الطبيعية أو الأجرام السماوية ، واستسلامه في هذا للفطرة وما تربت عليه ؛ حتى بلغ ذلك ببعض شعوبه مبلغاً من التسفل[٢٧٧] والانحطاط إلى دركات الهمجية ومزالق الكفر بباريء البرية[٢٧٨] ، ما أوضحه لنا التاريخ وأيده العيان[٢٧٩] في أمثال أولئك الشعوب من بعض سكان (إفريقية) الآن.

ولما كان مراد الله ـ سبحانه وتعالى بالإنسان تشريفه وتفضيله على سائر الحيوان ، بإرشاده إلى استخدام قواه العاقلة ومداركه العالية ، في سبيل ترقيه عن المرتبة الحيوانية إلى المرتبة الكاملة الإنسانية ؛ فقد شرع للشعوب من الشرائع ما يتكفل لهم بنوال

تلك النعمة ، وأرسل لهم الرسل بذلك مبشرين ومنذرين ؛ فكانوا تارة يقبلون وتارة يعرضون ، وتارة يؤمنون وتارة يكفرون. حتى بعث الله نبينا (محمداً) عليه الصلاة والسلام ، وأنزل عليه قرآناً فيه هدى ونور ، يدعو العقول إلى الانفكاك عن قيود الاستسلام المطلق للأوهام السابقة ، ويستحثها على الانفلات من أسر الضلال ، ويرشدها إلى سنن الكون السائرة على نظامها الطبيعي ، المصون من الخلل لقيامه بميزان العدل الإلهي الذي به استتبت أمور العالم ، وانتظم ذلك النظام البديع ؛ وإليه وردت الإشارة بقوله تعالىٰ :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾(٢٨٠)

ومن عدله تعالىٰ القائم بميزان الحق المبين في ذلك الكتاب المبين ، أن الأعمال التعبدية ، وإن يكن المقصود منها نوال الحياة الأبدية في الدار الآخرة ، إلا أنها لا ينبغي أن تمنع عن العمل للدنيا ، وذلك لأن الدنيا ذريعة للآخرة(٢٨١) . ومن رحمة الله وعدله ، أن منح المؤمنين الحسنى في الدنيا وهو التمتع بنعيمها ، كما وعدهم بذلك في الآخرة وهي أجل وأبقى ؛ ولهذا وردت الإشارة بقوله تعالىٰ :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ

أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢٨٢)

ومتى بلغ العقل في الإنسان مبلغ العلم بهذه السنن الإلهية ، تمهد له طريق الانتفاع من مداركه السامية بالبحث عن المنافع والمضار ، فهب لأخذ النافع له من طريق العمل المتوقف على الجد والسعي كما يشير إلى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (٢٨٣) ،

وقوله تعالى في التنبيه على أن العقل مطلق ، بعد أداء واجب الدين ، في أن يسير بصاحبه في طريق العمل ابتغاء الرزق ، بل مكلف إلى ذلك ،

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ (٢٨٤)

أي من رزقه .

هذا ما جاء به القرآن وأوضحه الإسلام للبشر ، لحلهم من وثاق الجهل ببدائع السنن الإلهية ، وحضهم على دفع الأوهام التي من شأنها إماتة العقول والأجسام ، ولحثهم على الاعتماد على النفس بعد الله بالعمل ، لا الاعتماد على أوهام آبائهم الأُوَل ، واتهام الزمان بنتائج الخمول والكسل .

الدرس العشرون

الاعتماد على النفس (تتمة)

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[×]

الإنسان مستعد للترقي بالطبع ، ميال إلى طلب المزيد من كل شيء ؛ وبهذا الميل وتلك الفطرة التي فطره الله عليها ، ينشط للعمل ، ويدأب في السعي في هذه الحياة ، لترقي معيشته وتعزيز جانبه[٢٨٥] ، ولهذا هو ميسر ، وللعمل والعبادة مخلوق ؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ خلق كل شيء ، فأبدع صنعه ، بأن أناط به من الوظائف ، ورتبه على نظام من السنن الإلهية والنواميس الفطرية ، ما نشاهد آثاره في هذا الوجود ، وبدائعه التي يشهد بسببها بقدرة الخالق تعالى كُلُّ موجود . وليمثل هذه السنن والنواميس المدبرة بحكمة الحكيم ، وردت الإشارة بقوله تعالى في القرآن الكريم :

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[٢٨٦]

وفي قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٢٨٧]

والإنسان ، بما أودع الله فيه من قوى العقل الباهرة ، وأعده له من نعيم الاستمتاع بنعم الأرض الوافرة ، داخل تحت تلك السنن ، بما غُرِزَ فيه من القوى المدركة التي ترشده إلى العمل والسعي على سنن ، إذا لم يجر عليها ويعمل بها ، لا يتوصل إلى تلك النعمة ، ولا يتمتع بذلك النعيم . وإنما يعمل الإنسان بتلك السنن ويعلمها ، إذا نبذ الأوهام والصدف التي يسميها بأسماء ، ما أنزل الله بها من سلطان ، كالسعد[٢٨٨] والبخت[٢٨٩] ونحوهما من الأسماء التي تعترض ترقي الإنسان ، وتمنعه من الاعتماد على النفس ، والنشاط في العمل الذي هو مخلوق من أجله ، وميسر له ، ولا يمكن بدونه بلوغه درجة الكمال الإنساني التي من مقتضاها تَرَفُّعُهُ عن مرتبة الحيوان وتَبَسُّطُه في مناحي الحضارة والعمران . وفي الحديث : (اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له) .

إذا تقرر هذا ، فقد علمتم منه ، ومما سبق بيانه في الدرس السابق ، أن القرآن يدعونا ـ معاشر المؤمنين. إلى السعي والعمل والاعتماد على النفس ، لا على الطقوس والعادات والتقاليد المتوارثة من الأمم السابقة ، لئلا تنشأ عليها أخلاقنا ، وتتلون بها فطرنا[٢٩٠] ، فتصدنا عن سبيل العمل ، وتحشرنا في

عداد الأمم الجاهلة بمزايا الإنسانية ، الموثقة برباط الاستسلام الأعمى ، التي أراد الله سبحانه وتعالىٰ ، بإرشادنا إلى طرق الخلاص منه ، تفضيلنا عليها وتمييزنا عنها ، كما تعلمون ذلك من قوله تعالىٰ :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[٢٩١]

أفليس من الفضيحة والعار على أمة ، بهذا جاء قرآنها وكذلك كان بين الأمم شأنها ، أن تصبح الآن ضعيفة الأفكار ، مستسلمة لما تسميها الأقدار ، وضيعة[٢٩٢] الجانب ، مهضومة الحق ، مسلوبة الاستقلال العقلي بيد البدع الضالة التى أودت بحياة النفس الطاهرة الإسلامية ، وقتلت هممها العالية ، فأصبحت لا تعتمد إلا على التمائم[٢٩٣] ، ولا تعمل إلا بالطيرة[٢٩٤] والفأل[٢٩٥] شأن الجاهلية الأولى الذين كانوا في الضلالة يخوضون ،

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾[٢٩٦]

أي أمة ، يكون الإسلام دينها ، والقرآن دستورها، ومحمد صلى الله عليه وسلم قائدها، والله سبحانه وتعالى يعظها ويذكرها ،

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[٢٩٧]

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[298]

وهي ترى أن الاستبصار[299] إنما هو في عدم البحث عن تلك الآيات ، ووضع العقل في وثاق الجهل بكل ما يخرج عن علم العبادات ؟ وأي آية أعظم من آية العقل الذي أخضع نواميس الكون ، فاستنزل الصواعق من السماء وزج بها في أعماق الغبراء [300] واستخدم البرق لنقل الأخبار ، والبخار لجوب[301] القفار ، وفعل في هذا الوجود أفاعيله[302] التي تقضي بالاستبصار ؟

اللهم ، إن العارف ببدائع صنعك من طريق العلم والدين ، الواقف على حقائق موجوداتك بالحق اليقين ، المستبصر بما خلقت في هذا الكون من عجائب مخلوقاتك ، لأشد حباً لك ، واعتقاداً بألوهيتك ، وتعظيماً لجلال قدرتك، وقياماً بحق عبادتك ، ممن هم لا يعلمون ذلك ولا يستبصرون ، و

﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[303]

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[304]

الدرس الحادي والعشرون

العلــم والتعلــم

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۢ ﴾(×)

العلم ـ هداكم الله وأرشدكم إليه ـ مناط الحياة الاجتماعية ، وأس الحضارة والعمران ، وأول المقومات التي لا تقوم إلا بها حياة المجتمعات . وتعريف العلم بوجه الإجمال ، أنه العقل الغريزي إذا ترقى إلى متناول المعرفة بحقائق المحسوسات ؛ لهذا يُمْدَحُ الإنسان العاقل بنسبة ما عنده من العلم بتلك الحقائق ، فيقال : فلان عاقل عالم أو نابغة أو حكيم ، وهكذا بالتدريج . وكلما كان الإنسان واسع العلم ، كثير المعرفة ، واقفاً على حقائق الأشياء ؛ كان وجيهاً في قومه ، محترماً من الناس ، قوي الجانب ، مقبول الرأي ، عارفاً بطرق السعادة ، ميسراً للعمل ، شديد الهيبة في نفوس الناس . وهكذا الحال أيضاً باعتبار المجموع ، كما هو باعتبار الأفراد ؛ أي كما تكون هذه النعوت لشخص بمفرده ، كذلك تكون لأمة بمجموعها ، إذا

انتشرت بين أفرادها أنوار العلم ، وعمت بينهم المعارف . ولا دليل نقيمه لكم على هذين الأمرين أعظم مما هو واقع تحت الحس والمشاهدة . فإننا نرى بأعيننا ونسمع بآذاننا، أن كل عالم بلغ درجة الكمال في العلم ، لا تنفك عنه هذه النعوت ، ومقامه في هيئة الاجتماع عالية عظيمة.

العلم طريق السعادة للدارين ، ومنبعث مجد الأمم ، وينبوع ثروة الشعوب . وما أذل المشرق بعد العز وأفقر سكانه بعد الغنىٰ ، وأقفر أوطانه بعد أن كانت آهلة بالعلم مزدحمة بطلابه ، إلا إهمال أهله للعلوم واسترسالهم في الشهوات . مع أن أعظم أمم الشرق التي بلغت أعلى مقامات الحضارة، وترقت في العلوم إلى ذروة الكمال ، فرفعت منار التمدن ، وتبسطت في مناحي العمران ؛ لم تبلغ ما بلغته من ذلك الأمة الإسلامية في عصر ترقيتها وإبان مجدها . وأين هي من ذلك المجد الآن ؟ ولماذا أخنىٰ[٣٠٥] عليها الزمان ؟ لتركها العلوم النافعة في الدنيا ، واشتغالها عن ذلك بالاستغراق في البذخ الذي أنهك قواها ، وأفقدها مجدها . ولو استمرت على خطتها الأولى ، والقرآن أمامها يحثها على العلم ، ويمهد لها طرق السعادة ، لكانت إلى العهد صاحبة السيادة على معظم أجزاء المعمورة ، والممسكة بخزائن الأرض . ومع هذا ، فهي إذا اطَّرَحَتْ دواعي اليأس الآن ، واستيقظت من غفلة الوسنان[٣٠٦] ، واسترشدت بالقرآن ؛

فنهضت نهضة رجل واحد، في سبيل تعميم العلم والتعليم، على طرقه النافعة وأصوله المرغوبة ليمثل هذا العصر، عصر الاختراع والابداع، عصر العجائب والغرائب، عصر العلوم والمعارف؛ تصل بلا ريب إلى مبتغاها، وتعيد سالف مجدها.

أينما نظر المؤمن في القرآن الكريم، يرى أن الله سبحانه وتعالى، يحث المؤمنين على العلم، ويخاطب العقل، ويأمر بالتبصر في آيات الكون والتفكر في خلق الله، وذلك كما في قوله تعالى:

﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٣٠٧] ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٣٠٨]

﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٣٠٩] ﴿ لِأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾[٣١٠]

﴿ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٣١١]

وغير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على عناية الله تعالى بالمؤمنين، وحثهم على إطلاق العقل من قيد الجهل المهين، ليخرج بهم من الظلمات إلى النور ومن العمى إلى الهدى. وأية عناية من هذا القبيل أعظم من عنايته تعالى بالمؤمنين في قوله جل وعلا: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[٣١٢]

أي إلى العلم ؟ بل أي ترغيب بالعلم وتشريف لقدر العلماء ، أحسن وأجل من قوله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾(٣١٣)

بل أي منشط على العلم ، داع إلى التخلص من الجهل ، أعظم من قوله تعالى ، يصف العلم بالحياة والجهل بالموت ، ويفضل العالمين على الجاهلين :

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾(٣١٤)

لهـذا كله ، وجب علينـا ـ معاشر المؤمنين ـ أن نسعى وراء العلم سعي الرائد المجد ، لندرك شأو(٣١٥) آبائنا الأولين ، ونحيا حياة طيبة كحياة أسلافنا الطاهرين.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾(٣١٦)

الدرس الثاني والعشرون

العلم بالعمل

﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (×)

إنما يتيسر وصول العقل إلى هذه الدرجة من العلم بالتعلم والتهذيب ، إذا روعي فيهما جانب الفضيلة على وجه يشعر معه المتعلم ، أنه إنما يتعلم ليعمل ، فينفع نفسه وبني جنسه بالعلم . وكأين من عالم ، لم يبلغ علمه درجة اليقين الداعية للشعور بوجوب العمل ، وعاش عمراً طويلاً في هذا الوجود ، ولم يترك فيه أثراً من آثار العلم النافع ؛ لأنه إنما علم ، ولكن لم يعمل بما علم، فعلمه وجهله سيان ، إذ ما الفائدة ممن يتعلم ويقول ، أنا عالم ، ولا يتبع القول بالعمل ، فيعمل بما رزقه الله من العلم ؛ فأولى بمثل هذا العالم أن يخشى الله فيعمل بما علِم ، فإن الله تعالىٰ يقول :

﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٣١٧)

واعلموا ، أن العلم هو الميزان الذي تتكافأ به قوىٰ الشعوب

المتنازعة في مضمار الحياة المدنية ، مادام العمل به متبادلاً بين المتنازعين ؛ ومتى وقف أحدهما عن العمل ، واستمر الآخر في عمله ، رجح هذا على ذاك بالضرورة ، فنازعه البقاء ، وغلبه عليه ؛ ولهذا وردت الإشارة في قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾[٣١٨]

أي بالعدل المانع من تغالب الناس المفضي إلى ضعف المجتمعات وفنائها . وإنما يقوم الناس بالقسط ، برد جميع الأعمال إلى ميزان الشرع ، الذي هو الكتاب المرشد إلى العلم بمصالح الإنسان الدنيوية والأخروية . ومتى قام الناس بالقسط ، وتكافؤوا بميزان العمل بمصالح حياتهم الاجتماعية ، أمن كل فريق منهم غائلة[٣١٩] تنازع البقاء ، مالم يختل ذلك التكافؤ برجحان إحدى كفتي ميزان العمل من المتنازعين ، فعندئذ لا مناص من غلبة الراجح على المرجوح ، وحياة قوم بفناء آخرين ، بحكم السنن الطبيعية التى سبق بها العلم الإلهي في هذا الوجود الخلقي وإليها يسير القرآن في قول الله تعالى :

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[٣٢٠]

وقوله تعالى :

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾(٣٢١)

إذا تقرر هذا ، فقد علمتم أن العلم بلا عمل ، لا يغنى عن الحياة شيئاً ؛ بل لا يكون العلم علماً إلا إذا ظهرت آثاره في الخارج ، وإنما تظهر آثاره بالعمل . فالعمل العمل ، فإن خير ما علمه الإنسان هو العمل ؛ وإلا فأي فائدة من علم المؤمن في دينه أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، إذا لم يصل فينتهي عن ذلك ؟ وعلمه في دنياه أن الزراعة ـ مثلاً ـ من أسباب الحياة البشرية ، ولم يعمل بالزراعة ، مع علمه بها ويفنونها ؟ وهكذا يقال في كل علم من علوم الدين والدنيا .

ومن نظر منكم إلى آثار العمل الصادرة عن العلم التي تفيضها على أرجاء المشرق الأمم المتقدمة الآن ، يحكم حكماً جازماً أن لا حياة لأمة ولا بقاء لشعب بإزاء تلك الأمم المتمدنة ، مالم يجارها في ميدان العمل مجاراة لا يعتري صاحبها الوهن ولا الكلل (٣٢٢) ، وإلاَّ جَرَفَتْ بتيار علومها وجود الجاهلين ، وسحقت بقوة عملها أجسام المستضعفين ،

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾(٣٢٣)

بعد إذ هداهم إلى طريق العمل ، وحذرهم عاقبة الإهمال والكسل ، وأبان لهم عن سنن الوجود ، ودعاهم إلى الاستبصار

والاعتبار ، فقال تعالى :

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (٣٢٤)

وقَرَّعَ المعرضين منهم عن البحث في بدائع الكون ونظامه المصون ، فقال تعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (٣٢٥)

الدرس الثالث والعشرون

التربيــة والأخــلاق

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾(×)

كلما تَرَقَّى العلم في أمة ، كانت أقرب لتربية النفوس وأدنى من تقـويـم الأخـلاق وتهـذيبها ، لا سيما إذا كان العلم مقروناً بالفضيلة . وفضيلة العلم هي عمل الإنسان بما يعلم . والعالم يدرك بالضرورة سائر المنافع والمضار التى تتأتى عن الأعمال؛ فإذا كان علمـه مقروناً بالفضيلة ، وهي العدل ، انتظمت سائر أعمـاله ، فعمل بالنافع ، واجتنب الضار ؛ وإلا ، فإذا لم يكن هناك فضيلة ، فالعلم ناقص .

لهـذا كانت التـربية على الفضائل أُسَّ العلم وأفضل معارج الترقي ؛ إذ إن تفشي الرذائل بين أمة ، إذا لم يمنع من ترقيها، فإنـه علة لسـرعـة سقوطها، لما فيه من غلبة الشهوات وتغالب النفوس على المنكرات ،

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾(٣٢٦)

وهذه سنة ثابتة من سنن الوجود الاجتماعي ، يؤيدها قوله تعالى :

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾(٣٢٧)

وكأين من أمة بَعُدَ صيتها،(٣٢٨) وتسامت صروح مجدها، وعظم سلطانها ؛ دبت(٣٢٩) فيها سموم الرذائل ، فنخرت عظامها ، وأوهنت قوتها، فهوت إلى دركات الهوان ، وانمحى رسمها من عالم الإنسان . وإنما تصاب الأمم بهذا الداء وتهوي مع الأهواء ، إذا ساءت فيها التربية ، وفُقِدَ من عندها التعلم على أساس الفضيلة ؛ ولهذا كله ، أمرنا الله سبحانه وتعالىٰ فى القرآن الكريم ، فقال تعالىٰ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾(٣٣٠)

أي بأن نجتنب الرذائل ، ولا نكتفي بتهذيب أنفسنا على اتباع الفضائل التي تقينا نار العذاب في الآخرة والأولىٰ ، بل نشرك معنا بالتربية على هذه الفضائل أهلينا وأولادنا ، وقال تعالىٰ :

﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾(٣٣١)

أي على ما نَشَأَ عليه وانطبع فيه .

وبالطبع ، إن الناشىء على الفضائل يقرب عمله من الكمال ؛ ويصدر العمل الخيِّر عن النفس التي تربت على الفضائل وتهذبت على حب الكمالات ؛ وبالعكس ؛ وشاهدنا

على ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة . . . الخ » . وقد مر معنا تتمة هذا الحديث في (الدرس التاسع عشر) ؛ حيث قلنا ، إن الفطرة الانسانية مستمدة من أصل الخلق للتلون بما يعرض عليها من الصور ، فتنطبع عليها أشد الصور التصاقاً بها ومروراً عليها ؛ فإذا كانت تلك الصور صوراً للفضائل ، نشأ الإنسان فاضلاً ؛ وإذا كانت صوراً للرذائل ، كان رذيلاً سافلاً . فالتربية الإسلامية هي مبدأ الحياة السعيدة للإنسان .

إذا تقرر هذا ، فمما لا ريب فيه عندي ، أن كلاً منكم يتمنى لنفسه الحياة السعيدة ، كما يتمناها لبنيه وذريته من بعده . وإنما تُنَالُ هذه السعادة بتهذيب النفس على الفضائل ، وتعويدها على اجتناب الرذائل . وخيركم من عقل ذلك ؛ فبادر إلى تهذيب نفسه ، وتقويم ما اعوج من خلقه ، ليكون قدوة صالحة لأهله ، ومربياً رشيداً لولده ، وسنداً قوياً لوطنه . فقد حان لنا ـ والله ـ أن نرجع بالنفوس عن غيها[٣٣٢] ، ونعطي هذه الحياة من السعادة حقها ؛ فإن الحياة قصيرة ، فما بالنا نقضيها في الشقاء ؟ والعبر كثيرة ، فحتام[٣٣٣] هذا الإغضاء ؟ والمرض قَتَّالٌ ، فلم لا نستعمل الدواء ؟ ربنا لا تزغ قلوبنا ، واجعلنا من عبادك الأخيار ،

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[٣٣٤]

الدرس الرابع والعشرون

بيان وتتمة في الأخلاق

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (×)

ذكرنا أن التربية هي مبدأ حياة للإنسان ، إما سعيدة وإما شقية . وهو محمول على أن الإنسان ، إذا نشأ على شيء من الأفعال النفسية ، واستمر على تعاطيه ، فإن كان ذلك الفعل شراً ، كان صاحبه شريراً، وإن كان خيراً ، كان صاحبه خيراً ؛ وأما إذا لم يستمر على تعاطيه، وبذل جهده لتغييره بطول الممارسة على عكسه ، فمن الممكن أن يتغير. ومثاله : من نشأ على رذيلة ، ثم أراد تركها، فليضعها بحيث يبغضها، ويعالج نفسه على تعويدها على الفضيلة ؛ وكلما تنبه فيه خلق الرذيلة ، بادر إلى رغم(٣٣٥) نفسه على التخلق بالفضيلة ، وهكذا حتى يتمكن فيه هذا التخلق ، وينصرف عنه ذاك .

وقد زعم بعضهم أن الأخلاق الرذيلة لا تتغير ، بدعوى أن الإنسان شرير بالطبع ؛ وهو زعم فاسد ، يدحضه قوله تعالىٰ إشارة إلى النفس :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾(٣٣٦)

وزعم آخرون أن السعادة والشقاء غير منوطين بأعمال الإنسان ، لأنه مسلوب الإرادة كالحيوان ، وإذا كتب الله عليه الشقاء ، أي قدره ، استمر شقياً إلى الأبد ؛ وهو زعم فاسد أيضا وافتراء على الله وبهتان ، إذ إن السعادة والشقاء إذا لم يناطا بعمل الإنسان ، سقط التكليف ، وبطلت الحاجة إلى الرسل والشرائع ؛ ومعاذ الله أن يكون ذلك كذلك ، فإن الله سبحانه وتعالىٰ ، يرسل رسله مبشرين ومنذرين ، مبشرين لمن قالوا :

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾(٣٣٧)

ومنذرين لمن قالوا :

﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾(٣٣٨)

وفضلا عن هذا ، فإن الاعتقاد بسلب الإراده إلى ذلك الحد ،

استدراج للبشر فى الشرور والمعاصي ؛ وهو ظلم تنزهت ذات الله سبحانه وتعالى عن مثله ، وهو القائل ، وقوله الحق :

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (٣٣٩)

والقائل ، وهو أصدق من قال :

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (٣٤٠)

والقائل سبحانه وتعالىٰ :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ (٣٤١)

والعدل ـ كما علمتم مما مر ـ أساس الفضائل في سائر أعمال الإنسان النفسية والبدنية ؛ وهذه الفضائل هي منتهى السعادة الدنيوية والأخروية ، وقد كلفنا الله تعالىٰ إلى طلبها بالعمل ، فلو تحتم على أحد الشقاء ، لما أمر بطلب السعادة . ومن ثم ، لا ينبغي لأحدنا ، إذا ابتلي برذيلة ، أن يستدرج في سائر أنواع الرذائل ، ويقدم على كل المعاصي ، لاعتقاده بأن ذلك قدر عليه ، ولا مفر له منه ؛ فإن هذا كفر صريح ، واعتقاد مناف لحكمة الله تعالىٰ في تدبير خلقه ؛ بل ينبغي عليه أن يعالج نفسه بالفضيلة ، ويصدها عن الرذيلة جهد الطاقة ، لئلا تسترسل في الشرور المفضية إلى إنهاك الأجسام وشديد الآلام في الدنيا،

والعذاب في الآخرة ، ولعذاب الآخرة أشد.

وبالجملة ، فالأخلاق الفاضلة ، تكتسب بالممارسة ؛ وأحسنها ما كان من أصل الفطرة ، أي ما فطرت عليه النفس ، لتكون كالشجرة ، تنمو فروعها بنمو الأصل ، وتؤتي أكلها كل حين[٣٤٢] . والفضائل هي الأعمال النفسية والبدنية التي روعي فيها جانب العدل ، وهو رد العمل إلى وسط بين طرفي الإفراط والتفريط ؛ كالكرم ، فإنه وسط بين رذيلتين ، الإسراف والبخل ؛ وكالشجاعة ، فإنها وسط بين رذيلتين ، الجنون والجبن . هذا باعتبار أمهات الفضائل . وأما باعتبار سائر الأخلاق الكريمة والفضائل ؛ فكل عمل بدني ، قصد به الاسترزاق من طرقه المشروعة ، كالزراعة والتجارة مثلاً ، فهو فضيلة ؛ وكل عمل نفسي ، كالصدق والأمانة وحسن المعاشرة وحب الناس وحب الوطن وحب العمل وإسداء المعروف وغير ذلك من الأعمال المحمودة ، فهو من الأخلاق الكريمة . ولنذكر لكم طرفاً منها على وجه الإجمال ، لتقيسوا غيره عليه . ونختار من ذلك حب الوطن وحب الناس ، لأنهما من أركان الاجتماع ، القائم على دعائم التعاون والاتحاد.

الدرس الخامس والعشرون

حُبُّ الوطن

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ (×)

الوطن طينة المرء التي ثبت فيها أصله ، ونما فرعه ، ونشأة حياتـه التي تغذت بهوائه ، واستظلت بكنفه[٣٤٣] ودوائه ؛ ومقره الذي تتجاذبه عوامل الشفقة عليه والحنين إليه ، إذا شط[٣٤٤] به مزاره[٣٤٥] ، وبعـدت عنـه داره ؛ وركنـه[٣٤٦] الذى يأوي إليه إذا نَبَتْ[٣٤٧] به البلاد ، ويتوسع فيه إذا ضاقت عليه الأرباض[٣٤٨] .

ربما غادر المرء وطنه أحياناً لفاقة تصيبه أو ذل يراه ، واستقر في موطن غيره ، يفيض عليه من النعم أشكـالاً ومن العز هيبة وجلالاً ، فيستكن[٣٤٩] فيه عمره ، يستدر خيره وَمَيْرَهُ[٣٥٠] ؛ فيبتني لنفسه الدور ، ويأوي إلى شاهقات القصور ، ويتمتع بأحسن ما يتمتع به النظر ويلذ للنفس ؛ شاكراً خروجه من ضيق العيش إلى سعتـه ، ومن ذل الجـوار إلى عزتـه . وبينما هو في هذا النعيم المقيم ، يطرأ عليه خبر عن جائحة[٣٥١] أصابت وطنه ، أو مصيبة حلت فيه ، أو عدو غلب عليه ؛ فتنـزعج لذلك جوانحه[٣٥٢] ، وتتـألم جوارحـه[٣٥٣]، ويتنغَّص عيشـه، وتنكمش عضـلاتـه ،

وتنقبض أسارير[٣٥٤] وجهه . وربما يغلب عليه الحنو ، فيجهر بالأواه ، وينادي : وا أسفاه ! وا وطناه ! كل ذلك ، وهو لا يملك فيه شبراً ، ولا ينتظر لنفسه منه خيراً. إذن ، فما هو الباعث الغريب والسر العجيب ؟ ما هذا المؤثر القاهر والإحساس الطاهر ؟ هذا حب الوطن . نعم ، حب الوطن ؛ فكم رخصت دونه أرواح وغلت أرواح ، بل كم رفع لرجال ذكراً كان خاملاً ، وشيد لأعمالهم أثراً، ماتوا وظل باقياً.

حب الوطن ، ولا نكران للحق ، أشرف خلق يتحلىٰ به الإنسان ، وأحسن شيمة ينطوي عليها الجنان ، وهو من أخلاق الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام . وقد كان نبينا محمد صلىٰ الله عليه وسلم ، بعد هجرته إلى (المدينة)، يحن إلى وطنه (مكة) حنيناً كثيراً ، مع أنه خرج منها وهو غير راض عن أهلها لمعاداتهم له وإيصالهم الأذية إليه ، حتى وعده الله سبحانه وتعالىٰ بأن يريه إياها ويرده إليها ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾[٣٥٥]

ولما أنجز الله له وعده ، ودخلها عام الفتح ظافراً بمن كانوا أشد الناس عداوة له ، وهم (قريش) ، فنادىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام : (من دخل (البيت) كان آمناً، ومن دخل دار (فلان) كان آمناً)[٣٥٦] أي لا يقتل ؛ قصد بهذا حقن الدماء وسماحة

الاسلام ورجاحة صدره بقبول توبة التائب ، وبالعفو عند المقدرة ، وأن الاسلام يجب ما قبله. والمؤمن يتحمل المصاعب والمشاق دون الإيمان ، ويجتنب المهالك إلا دون الإيمان ، ويمسك عن الإسراف والتبذير إلا في سبيل الإيمان ، ويخرج عن نفسه وماله للايمان ؛ وبالجملة ، فحقوق الوطن على المؤمن هي حقوق الإيمان ، مادام حب الوطن من الإيمان ؛ ولهذا جاء القرآن قارناً بين حق الدين وحق الوطن ، وذلك بقوله تعالى :

﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[٣٥٧]

الوطن جامع ما تفرق ، وضام الشتيت[٣٥٨] من الإنسان . وإنما تقوم المدنية حيث يكون الاجتماع ، وتستبحر[٣٥٩] الحضارة حيث تتألف القلوب على العمل ، ويمتد العمران حيث يجتمع الناس . والإنسان العامل في وطنه هو الأمة ، لأن الأمة هي العمل . ومن لا يعمل في وطنه ، فعدمه خير من حياته ، لأنه يشغل فراغاً من الوجود أحق أن يشغله سواه . وما أصيب وطن من أهله بمثل الكسل ، كما لم يعتز وطن من أهله بمثل العمل . مجد الوطن وسعادته ببنيه ، وبنوه بالعمل ، فالعمل العمل .

وأنجح الأعمال عمل سبقه العزم ، وحفه الثبات ، وروعيت فيه تقوى الله ، والله لا يضيع أجر العاملين.

وهذه أمة الإسلام المتمثلة في حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن بعده خلفائه الراشدين الذين عرفوا عنه مزية العمل ، وأن به سعادة أمتهم واستفحال [٣٦٠] مجدهم ؛ فانكفؤوا على أطراف البسيط ، يلاقون المصاعب ، ويقاسون الأهوال ليؤكدوا ويبينوا فضل العمل.

هكذا تفعل الأمم الحية ، وبهذا تحيا النفوس الميتة ، وذلك هو نشاط الحياة الطيبة وثمرة العقل المطلق . فارزقنا ـ اللهم ـ نوراً ، منه نهتدي به في ظلمة ، غشيت أو طاننا ، وأضلت أفكارنا ، فتركتنا في حيرة ، لا مناص منها إلا بالعمل ، نعم ، العمل العمل ،

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨ ﴾ [٣٦١]

والله مسهل الأسباب .

الدرس السادس والعشرون

حُبُّ النـاس

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [×]

إن منتهى ما توصف به أمـة من مكـارم الأخـلاق ، الحب المتبادل على الوجه الذي وصف الله تعالى به المؤمنين بقوله :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [٣٦٢]

هكذا كان المؤمنون ، يؤثر أحدهم الآخر على نفسه بالشيء ، مهما كان شديد الحاجة إليه . وبلغ بهم هذا الحب المتبادل إلى حد من الثقـة بعضهم ببعض ، أن كان أحـدهم ، ثقة بإخوانه المـؤمـنين ، لا يأتـي أمـراً إلا بمشـورتـهـم عليه وطـلـب المنـاصحـة[٣٦٣] فيه . وكـانـوا خلطاء[٣٦٤] بالمـال من عظم الثقة المتبادلة ، كما وصفهم بذلك الله تعالى بقوله جل من قائل :

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [٣٦٥]

إن العقل ، مهما تصور من السؤدد[٣٦٦] لمثل هذه الأمة ، فهو قليل ، بالنسبة لما كان عليه شأنها وجاء به قرآنها . وما بلغت من الرفعة والمجد درجة ، حيرت عقول الباحثين في تواريخ الأمم ،

ودلت على مقدار فضل التآلف والاتحاد ، إلا بمثل تلك الأخلاق الكريمة والأعمال الشريفة، الصادرة عن قلوب ملؤها الإيمان ، وعواطف كلها حنان ، عن أناس ، كان أحب إلى أحدهم أن يؤلف بين قلبين من أن يملك ما بين قطرين ؛ عن أناس ، وصفهم نبيهم صلى الله عليه وسلم بقوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »[٣٦٧] ؛ عن أناس ، بلغ من حب خليفتهم للمؤمنين وحرصه على راحة المسلمين ، أن كان إذا سمع بوقوع ضر بأحدهم ، يمرغ وجهه بالتراب ، ويقول : وا خجلتاه ! وا عمراه [٣٦٨] ! أيصاب (فلان) بكذا، وأنت غافل عن كشف الضر عنه ؟ ليت أمي لم تلدني . أي عاطفة لا تتحرك ، وأي قلب لا ينتعش ، وأي قاس لا يلين ، لمثل هذا الإحساس الطاهر ، والحب المتمكن من أعماق قلوب المؤمنين ؟ .

اللهم ! ارزقنا عودة على بدء ، ويسر لنا من أمرنا فرجاً، فقد ضاقت الصدور ، وتنافرت الأنفس ، وتباغض المؤمنون ، وتخاذل المسلمون ؛ فحل بهم البلاء ، وتناوشتهم[٣٦٩] الأعداء ، وزالت ثقتهم من الصدور فتناكروا[٣٧٠] ، وبارت تجارة العهد عندهم فتنافروا ، ونزغ بينهم نازغ[٣٧١] الفساد فأرداهم [٣٧٢] ، وغفلوا عن وصايا الله سبحانه وتعالىٰ ونبيه فساءت عقباهم[٣٧٣]. يقول الله سبحانه وتعالى على لسان نبيه صلىٰ الله عليه وسلم :

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾[٣٧٤]

فلا يتدبرون ، وفي البغضاء يتمادون ؛ ويقول لهم رسوله عليه الصلاة والسلام : « أحبكم إليَّ أحَاسِنُكُمْ أخلاقاً، الموطئون أكنافاً[٣٧٥] ، الذين يألفون ويؤلفون »، فلا يشعرون بمعنى هذا التأليف ولا يعملون ، وعن العاقبة هم غافلون .

إخواني ! أتظنون أن لكم حياة بعد اليوم إلا بالتأليف ؟ أترون أنها تقوم لكم قائمة إلا بتبادل الحب ؟ هل تنشأ الثقة إلا عن الحب ؟ أتقوم التجارة والصناعة والزراعة وكل أسباب المعاش إلا بالثقة ؟ أيحيا الناس بدون المال ؟ هل يتيسر المال إلا بأصول المكاسب ؟ هل تنمو هذه الأصول إلا بالثقة ؟ أتكون ثقة حيث لا يكون الحب ؟ لا ، والله ، لا تكون ؛ فاحفظواعني هذه الشؤون ، واتقوا الله فيما أنتم فيه من اللهو واللعب تخوضون . وألفوا بين قلوبكم ، وتعاونوا على أمر دنياكم ، واختاروا أقرب طريق لنجح[٣٧٦] مسعاكم ؛ ومن يفعل ذلك فأولئك هم المفلحون ، فأنتم أبناء من بآثارهم اهتدى الضالون ومن نتاج عقولهم أخذ الغربيون ، وبهم عرفت مزايا الاجتماع ، وهم رافعو منار الدول ، ومؤسسو دعائم العمل ، الذين كانت تتجافى جنوبهم[٣٧٧] عن المضاجع ، لكلمة من داعي الحق إذا دعاهم ،

ومنادي حيَّ على الصلاة حيَّ على الفلاح إذا ناداهم . وأي عمل للمؤمنين الآن أفضل من جمع كلمتهم على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر وتأليف قلوبهم على الحب ، ليعدوا للأعداء من القوة ما استطاعوا من نوع قوتهم ، ويقيموا من العلم والعمل سداً دون أطماعهم ؟ قال تعالىٰ :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (٣٧٨)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قاتل ، فليقاتل كما يقاتل » (٣٧٩) ؛ إنهم يقاتلوننا بقوة العلم والاختراع ، فهل أعددنا لهم مثلها أو أدنى منها ؟ لا ، والله ؛ إخواني ! لا تكونوا كمن جعلوا بأسهم (٣٨٠) بينهم ، فكانوا من الأخسرين أعمالاً ؛ بل كونوا كما كان أسلافكم من المؤمنين ، رحماء بينهم ، أشداء على عداهم . والله مع المتقين .

الدرس السابع والعشرون

خاتمة فيها تذكير

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (×)

يا أبناء الإسلام هذه أراء اجتهدت فيها لعلها تأتى ثمارها بتذكيركم . وما أنا بأقل منكم حاجة إلى التذكير ؛ وإنما هو ضمير كضمائركم ، ووجدان كوجدانكم ، وشعور كشعوركم ، بعث في نشاط الفكر ، لخدمة اللأمة بِذَرّةٍ مما يجب على كل فرد يشتغل لحياتها لا لحياته ؛ إذ إن حياة الفرد الواحد ـ بالنسبة لحياة الأمة ـ أقصر من أن يشتغل بها لحياته ، وإنما هو يشتغل لحياة الأمة .

وإنما يكون المسلم مشتغلاً لحياة الأمة ، إذا استجاب لله وللرسول فيما يحيي إخوانه المسلمين ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (٣٨١)

وأي حياة أشرف وأسمى من حياة أمة ، يدعوها كتابها إلى حياة العقل والإرادة والنشاط ، إلى حياة المجد والقوة والعزة والسيادة ، إلى حياة العمل والجد ؟ نعم ، إلى هذه الحياة يدعو القرآن المؤمنين ، ولأجلها تجافت جنوبهم عن المضاجع مئات من السنين . لايرى أحدهم إلا على متن[٣٨٢] جواد أو غارب[٣٨٣] بعير ؛ فدوخوا الممالك ، ووطئوا بسنابك[٣٨٤] خيولهم معظم عواصم الأرض ؛ فاخترقوا جدار (الصين) من الشرق ، وقطعوا جبال (البرنات)[٣٨٥] من الغرب ؛ وما استقروا في مكان إلا مصروا فيه الأمصار ، وشيدوا للعلوم دوراً ، ورفعوا للدين مناراً ، وأقاموا للمجد والسيادة دعائم ، وأحيوا للسياسة معالم ؛ فمهدوا للإسلام طريق الانتشار ، فبلغ (الهند) و (الصين) شرقاً ، واخترق (المحيط الغربي)[٣٨٦] غرباً ، ووصل إلى شطوط[٣٨٧] (المتجمد الشمالي)[٣٨٨] مما يلي (سيبريا) شمالاً وعم جزائر (المحيط الجنوبي)[٣٨٩] جنوباً .

أين تلك العصابة المؤمنة ؟ وما الذي ذهب بهذه الحياة النشيطة ؟ أليس هو فساد ، تطرق بعد إلى تربية أفكار الأمة ، من خَلَفٍ أتى بعد تلك العصابة ، فأخلد إلى الراحة ، واستغرق في الشهوات ؛ فاعتذر عن عدم مجاراته لتلك العصابة العاملة من المؤمنين ، بأن الزهد عن العمل من الدين ، والدين بالزهد ؛ وأن ليس للمؤمن أن يسعد بعمله أو يشقى ، أو يشتغل في دنياه وله

الأخرى ؛ وأنه مسلوب[٣٩٠] الإرادة فلا يسعى ، مسوق بالقضاء كالبهيمة العجماء ، تذهب بفطرتها إلى المرعى[٣٩١] .

سبحانك اللهم ، إنْ هذا[٣٩٢] إلا بهتان على دينك وافتراء على رسولك والقائمين معه من المؤمنين ، الذين هم أرسخ علماً وأعظم إيماناً وأشد تمسكاً بالدين واهتداء بالكتاب المبين . ومع هذا ، فقد كان منهم مثل (عثمان) رضي الله تعالىٰ عنه ، الذي صار خليفة، ولم يَدَعْ الاشتغال بالتجارة ، أو يكون يوما بثروته العظمة من الزاهدين . ومثل (خالد بن الوليد) رضي الله تعالىٰ عنه ، الذي لم يفتأ، منذ دخل في الإسلام ، عاملاً في خدمة المسلمين ، ممتطياً صهوة جواده آناء الليل وأطراف النهار ، يخوض بجيوش المؤمنين القفار ، ويفتح لهم الممالك ، ويدوخ الأمصار ؛ ولم يضطجع على فراش الراحة إلا أيام مرضه التي قضاها ، وهو يتأوه من عدم العمل تأوه الولهان ، ويقول : أعلى هذا الفراش أموت ؟ لا عاش الجبان ، لا عاش الجبان.

لاجرم أن هذه العصابة الطاهرة التى رفعت مجد الإسلام ، وشيدت بعملها المتواصل وسعيها الحثيث دعائم الدول ، ومكنها الله من كنوز الأرض ، وأخذت بأعنة التجارة والصناعة والعلم والمعارف والرئاسة والسياسة ، بعد أن كانت في بداوتها بمعزل عن هذا كله ؛ لعصابة عرفت حقيقة الإسلام وما يدعو إليه ، فأخذت نصيبها من الدنيا والدين ، وكانت بالسعادة القصوى من

الفائزين ، لاهتدائها بنور الكتاب المبين الذي أنزل على خاتم النبيين عليه أفضل الصلاة والتسليم ،

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ (٣٩٣)

إخواني ! إن أخوف ما يكون على الأمم من الهلاك ، انحرافها عن دين أنزل عليها بالحق ، وإعراضها عن السنن النافعة التي سنها للخلق . وهـذا ما قضى على قوم (نـوح) و (إبراهيم) و (مـوسى) من قبل ، إذ استعملوا الأديان آلة لغير ما أنزلت له ، فذبحتهم بحدها . فلا تكونوا كأؤلئك الغابرين ،

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (٣٩٤)

وصلى الله على نبينا وسلم .

(حـواشـي القســم الثالـث)

(×) إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » الآية ١٣ من سورة الحجرات

(١٧٠) جنح : يجنح : مال.

(١٧١) الدهماء : عامة الناس.

(١٧٢) المشارب : الأذواق ، ومفردها مشرب.

(١٧٣) متسقة : منتظمة.

(١٧٤) اندفع : تنحى وابتعد.

(١٧٥) التناكر : التجاهل.

(١٧٦) سورة الحجرات / آية : ١٣.

(١٧٧) بر ـ يبر : أحسن بعطف ورحمة.

(١٧٨) أقسط : عدل.

(١٧٩) سورة الممتحنة / آية : ٨.

(١٨٠) سورة الحجرات / آية ١١ لا تلمزوا : لا تعيبوا ، ولا تنابزوا : ولا تلقبوا بعضكم بعضاً.

(×) « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وكان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم » الآية : ١٤٣ من سورة البقرة.

(١٨١) النواصي : جمع ناصية ، وهي شعر مقدم الرأس.

(١٨٢) الهامة : الرأس.

(١٨٣) النجيع : الدم.

(١٨٤) خول : عهد ، أعطى متفضلاً . فوض.

(١٨٥) الحمأة : الطين الأسود المنتن.

(١٨٦) المتهتك : الذي لا يبالي بالفضائح.

(١٨٧) الوبائية : نسبة إلى الوباء ، وهو المرض الساري.

(١٨٨) الذريع : الشديد والسريع والقطيع.

(١٨٩) أنى : كيف.

(١٩٠) وسطاً : أي عدلاً ، كما في تفسير الفخر الرازي وغيره . (المؤلف).

(×) ﴿قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسكم نفعا ولا ضرا قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خلق كل شيء وهو الواحد القهار﴾ الآية ١٦ من سورة الرعد.

(١٩١) الإحجام : الكف وعدم الإقدام.

(١٩٢) تنكب : مال وعدل.

(١٩٣) الإخلاد : الركون والسكون.

(١٩٤) تناهى : بلغ النهاية.

(١٩٥) الجلبة : الصياح والضجيج.

(١٩٦) الهمهمة : ترديد الصوت بما لا يفهم.

(١٩٧) الحسيس : الصوت الخفي.

(١٩٨) الأنعام : الإبل والبقر والغنم وأماثهلا.

(١٩٩) سورة المنافقون / آية ٨.

(٢٠٠) الدرك : أقصى القمر أو القاع.

(٢٠١) الأولياء : جمع ولي ، وهو السيد والرئيس وصاحب الأمر.

(٢٠٢) سورة النساء / آية : ١٢٣.

(٢٠٣) الجماع : الجمع.

(٢٠٤) الأس : الأساس.

(٢٠٥) ساس ـ يسوس : حكم.

(٢٠٦) قبله : عنده.

(٢٠٧) الغيظ : الغضب والانزعاج.

(٢٠٨) سورة الرعد / آية ١٦.

(٢٠٩) النهج : الطريق الواضح.

(٢١٠) التلبيس : ستر الحقيقة وإظهارها بخلاف ما هي عليه.

(٢١١) حرية : جديرة.

(٢١٢) النبذ : الإلقاء بعيداً.

(٢١٣) الاستهجان : الاستقباح وعدم الاستحسان.

(×) «ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنأن قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون». الآية : ٨ من سورة المائدة.

(٢١٤) التغرير : الخداع.

(٢١٥) أنهك : أتعب وأجهد.

(٢١٦) العوض : البدل.

(٢١٧) المستعيض : طالب العوض.

(٢١٨) النظير : المثيل والمقابل.

(٢١٩) المعيض : معطي العوض.

(٢٢٠) البخس : الانقاص.

(٢٢١) بار ـ يبور : كسد.

(٢٢٢) تهالك : اشتد في الإقبال والترامي على الشيء.

(٢٢٣) القوت : الطعام.

(٢٢٤) الزواجر : النواهي الشديدة.

(٢٢٥) سورة الشعراء / آية : ١٨٢ القسطاس : الميزان.

(٢٢٦) سورة المطففين / آية : ١ ، و ٢ ، و ٣ ، للمطففين : للذين ينقصون في الوزن. اكتالوا : أخذوا ، أي اشتروا. يستوفون · يأخذون الوزن كاملاً. كالوهم : أعظوهم ، أي باعوهم . يخسرون : ينقصون.

(٢٢٧) سورة البقرة / آية : ١٨٨.

(٢٢٨) سورة الأعراف / آية : ٨٥ لا تبخسوا : لا تنقصوا.

(٢٢٩) عن أبى هريرة - رواه مسلم : [من غشنا فليس منا].

(٢٣٠) سورة المائدة / آية ٨.

(×) « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر اولئك هو يبور » . سورة فاطر / آية : ١٠.

(٢٣١) سورة فاطر / آية ١٠ يمكرون : يحتالون ويخادعون.

(٢٣٢) التحلق : التودد الكاذب.

(٢٣٣) ربا - يربو ، زاد.

(٢٣٤) الإغضاء : السكوت والتغافل.

(٢٣٥) بادر : أسرع.

(٢٣٦) الغلو : تجاوز الحد والمضي بعيداً.

(٢٣٧) المغالاة : المبالغة الشديدة.

(٢٣٨) أفضىٰ : أدى أوصل إلى.

(٢٣٩) الإيغار : الإملاء بالغيظ.

(٢٤٠) الخزي : الذل والمهانة والعار.

(٢٤١) سورة النساء / آية : ١٤٥.

(٢٤٢) هو كتاب (إحياء علوم الدين).

(٢٤٣) إشارة إلى ماكان مشهوراً يومئذ عن أهل العراق من النفاق. (المؤلف).

(٢٤٤) زكى : مدح.

(٢٤٥) الشيم الشماء : الأخلاق الرفيعة.

(×) «ولا تجادل عن الذين يختانون انفسهم ان الله لا يحب من كان خوانا اثيما» الآية : ١٠٧ من سورة النساء .

(٢٤٦) الأضاليل : الأكاذيب الباعثة على الضلال، ومفردها أضلولة.

(٢٤٧) البدع : جمع بدعة، وهي الجديد المستحدث في الدين.

(٢٤٨) العرض : المتاع والمال.

(٢٤٩) سورة الزخرف / آية ٣٧.

(٢٥٠) سورة العلق / آية ٤ ، ٥.

(٢٥١) سورة الإسراء / آية : ٧٠.

(٢٥٢) سورة الذاريات / آية : ٢٠، و ٢١.

(٢٥٣) سورة الشعراء / آية ٢٢٧.

(٢٥٤) سورة الحشر / آية رقم : ٧.

(٢٥٥) قرع : وبخ بشدة ، عنف.

(٢٥٦) التخريص : الكذب .

(٢٥٧) سورة محمد / آية : ٣٠ لحن القول : القول الملتوي غير الصريح الواضح.

(٢٥٨) الأثيم : المجرم.

(٢٥٩) الذمة : العهد والأمـان.

(٢٦٠) سورة الأنفال / آية : ٢٧.

(٢٦١) سورة النساء / آية : ١٠٧.

(٢٦٢) إخال : أظن وأعتقد.

(٢٦٣) المزلة : موضع الزلل أي الزلق.

(×) «آية ٢ ، و٣ من سورة العصر».

(٢٦٤) ونئ - يني : تعب وضعف.

(٢٦٥) نبت : أي صار وأثمر.

(٢٦٦) المتمنئ : الأمنية.

(٢٦٧) سورة العصر / آية ٢ ، و٣.

(٢٦٨) إن السبب الداعي لاضطهاد أرباب تلك العلوم في القرون المتوسطة الإسلامية ، هو تحول حال الحكومات الإسلامية إلى حد من الاستبداد ، يأبئ وصول العقول إلى درجة العلوم التى تنبه في أفكار الأمة معرفة الحقوق والواجبات التى انتزعها منهم ذلك الحكم. وقد مر فـي دروس العدل مافيه البيان الكافي بهذا الصدد. (المؤلف).

ويجدر الإشارة إلى أن من العلماء من استمروا في نشر علومهم ومعارفهم وهم في غياهب السجون كالإمام ابن تيمية.

(٢٦٩) المنون : المنية ، الموت.

(٢٧٠) شاب يشوب : خالط.

(٢٧١) سورة آل عمران / آية ١٥٩.

(×) «آية : ٣٨ ، و٣٩ من سورة النجم»

(٢٧٢) كما يجدر بنا تذكر ماقاله الله تعالى في هذا الصدد عن الفطرة الإنسانية «فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » سورة الروم / آية ٣٠.

(٢٧٣) يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه : أي يجعلانه يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً. متفق عليه. من حديث ابي هريره (كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه).

(٢٧٤) العجماء : التي لا تنطق أو تفصح.

(٢٧٥) سفل - يسفل : انحط وانخفض.

(٢٧٦) الحول : القدرة.

(٢٧٧) التسفل : الانحطاط والانخفاض.

(٢٧٨) البرية : الخلق.

(٢٧٩) العيان : المشاهدة.

(٢٨٠) سورة الرحمن / آية : ٧

(٢٨١) الذريعة : الوسيلة.

(٢٨٢) سورة النحل / آية : ٣٠.

(٢٨٣) سورة النجم / آية : ٣٩.

(٢٨٤) سورة الجمعة / آية : ١٠.

(×) « آية / ١٩٠ من سورة آل عمران ».

(٢٨٥) تعزيز الجانب : تقوية الشأن والحال.

(٢٨٦) سورة الرعد / آية : ٨.

(٢٨٧) سورة آل عمران / آية : ١٩٠.

(٢٨٨) السعد : اليمن والبركة.

(٢٨٩) البخت : الحــظ.

(٢٩٠) الفطـر : جمع فطرة ، وهي الجوهر الطبيعي الذي خلق عليه الإنسان.

(٢٩١) سورة آل عمران بداية الآية : ١١٠.

(٢٩٢) وضيعة الجانب : حقيرة الشأن.

(٢٩٣) التمائم : جمع تميمة ، وهي التعويذة.

(٢٩٤) الطيرة : مايتشاءم به.

(٢٩٥) الفأل : ما يتفاءل به.

(٢٩٦) سورة الحشر / نهاية آية : ١٤.

(٢٩٧) سورة الذاريات / آية : ٢٠ ، و ٢١.

(٢٩٨) سورة البقرة / نهاية الآية : ٢٦٦.

(٢٩٩) الاستبصار : التأمــل.

(٣٠٠) الغبراء : الأرض.

(٣٠١) الجوب : القطع والسفر.

(٣٠٢) الأفاعيل : الأفعال والأعمال ، ومفردها فعل.

(٣٠٣) سورة الزمر / جزء من الآية : ٩.

(٣٠٤) سورة آل عمران / آية : ٨ لا تزغ : لا تمل ، لا تحرف.

(×) « ياأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير » الآية : ١١ من سورة المجادلة.

(٣٠٥) أخنى : أتى عليه وأهلك.

(٣٠٦) الوسنان : النعسان النائم.

(٣٠٧) سورة البقرة / آية : ٢٣٠ ، سورة الأنعام / آية : ٩٧ ، ١٠٥ ، سورة الأعراف /

آية : ٣٢ ، سورة التوبة / آية : ١١ ، سورة يونس / آية : ٥ ، سورة فصلت / آية : ٣٠.

(٣٠٨) سورة يونس / آية : ١٤ ، سورة الرعد / آية : ٣ ، سورة النحل / آية : ١١ ، و ٦٩، سورة الروم / آية ٢١ ، سورة الزمر / آية ٤٢ ، سورة الجاثية / آية ١٣.

(٣٠٩) سورة البقرة / آية ١٦٤، سورة الرعد / آية ٤ ، سورة النحل / آية : ١٢، و ٦٧ ، سورة العنكبوت / آية : ٣٥، سورة الروم / آية ٢٤ ، و ٢٨، الجاثية / آية : ٥ .

(٣١٠) سورة طه / آية ٥٤، ١٢٨ النهى : جمع نهية ، وهي العقل.

(٣١١) سورة آل عمران / آية : ١٩٠، سورة يوسف / آية : ١١١ ، سورة ص / آية ٤٣ ، سورة الزمر / آية ٢١، سورة غافر / آية ٥٤.

(٣١٢) سورة البقرة / آية : ٢٥٧، والنور يعنى العلم والهداية والرشاد والتزام الطريق المستقيم.

(٣١٣) سورة المجادلة / آية : ١١.

(٣١٤) سورة الأنعام / آية : ١٢٢.

(٣١٥) الشأو : الشوط والسبق والغاية.

(٣١٦) سورة النحل / آية : ١٢٨.

(×) سورة الصف / آية ٣.

(٣١٧) سورة الصف / آية ٣ مقتاً : كرهاً شديداً.

(٣١٨) سورة الحديد / آية ٢٥.

(٣١٩) الغائلة : الداهية أو الشر والفساد.

(٣٢٠) سورة الفتح / آية : ٢٣.

(٣٢١) سورة آل عمـران / جزء من الآية ١٤٠ نداولهـا : نصرفها ونصيرها لهؤلاء تارة ولهؤلاء تارة ئخرى

(٣٢٢) الكلل : التعب.

(٣٢٣) سورة فصلت / آية ٤٦.

(٣٢٤) سورة الحشر / نهاية الآية : ٢.

(٣٢٥) سورة يوسف / آية : ١٠٥.

(×) « يأأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » سورة التحريم / آية : ٦.

(٣٢٦) سورة هود / آية : ١١٧.

(٣٢٧) سورة الإسراء / آية : آية ١٦.

(٣٢٨) الصيت : الذكر الجميل ، السمعة الجيدة.

(٣٢٩) دب - يدب : سرى.

(٣٣٠) سورة التحريم / آية : ٦.

(٣٣١) سوۏر الإسراء / بداية الآية ٨٤.

(٣٣٢) الغي : الضلال.

(٣٣٣) حتام : إلى متى.

(٣٣٤) سورة البقرة / آية رقم ٢٠١.

(×) سورة الشمس / آية : ٨ ، ٩.

(٣٣٥) الرغم : الإرغام والإكراه.

(٣٣٦) سورة الشمس / آية : ١٠ ، ١١ زكاها : طهرها . خاب : خسر . دساها : أخفاها بالفجور.

(٣٣٧) سورة آل عمران / بداية الآية : ١٩٣.

(٣٣٨) سورة الأنعام / آية : ١٤٨ تخرصون : تكذبون.

(٣٣٩) سورة فصلت / آية : ٤٦ .

(٣٤٠) سورة الشورى / آية : ٣٠.

(٣٤١) سورة النحل / آية : ٩٠.

(٣٤٢) توتي أكلها كل حين : تعطي ثمارها في كل وقت

(×) « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قل رب أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين » سورة القصص / آية : ٨٥.

(٣٤٣) الكنف : الجانب.

(٣٤٤) شط ـ يشط : بعد.

(٣٤٥) المزار : موضع الزيارة.

(٣٤٦) الكن : البيت والمأوى ، والجمع أكنان.

(٣٤٧) نبا ـ ينبو : جفا.

(٣٤٨) الأرباض : المساكن والدور ، ومفردها ربض.

(٣٤٩) استكن : استقر.

(٣٥٠) المير : الطعام.

(٣٥١) الجائحة : البلية العظيمة ، والجمع جوائح.

(٣٥٢) الجوانح : الأضلاع ، والمفرد جانحة.

(٣٥٣) الجوارح : الأعضاء ، والمفرد جارحة.

(٣٥٤) أسارير الوجه : محاسنه.

(٣٥٥) سورة القصص / آية : ٨٥.

(٣٥٦) وردت في سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٦ أن العباس بن عبد المطلب قال لرسول الله بعد فتح مكة يريد أن يرفع من شأن أبي سفيان بين قومه : يارسول الله إنك عرفت أبا سفيان وجيه الشرف والفخر. اجعل له شيئاً يكون في قومه . فقال : نعم =

= من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. وفي رواية (البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٩١) أن أبا سفيان قال حينئذ. وما تسع داري يارسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: ومن دخل الكعبة فهو آمن. فقال أبو سفيان : وما تسع الكعبة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : ومن دخل المسجد فهو آمن . قال أبو سفيان . وما يسع المسجد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن . فقال أبو سفيان : هذه واسعة.

(٣٥٧) سورة الممتحنة : آية / ٨.

(٣٥٨) الشتيت : المتفرق.

(٣٥٩) استبحر : اتسع وانبسط.

(٣٦٠) الاستفحال : التعاظم والتزايد.

(٣٦١) سورة الزلزلة / آية : ٧ ، ٨ مثقال : وزن ، زنة .

(×) « والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » سورة الحشر / آية ٩.

(٣٦٢) الخصاصة : الفقر الشديد.

(٣٦٣) المناصحة : نصح الواحد الآخر.

(٣٦٤) خلطاء : شركاء.

(٣٦٥) سورة الشورى / نهاية الآية : ٣٨.

(٣٦٦) السودد ـ والسؤدد : الشرف والمجد.

(٣٦٧) عن أبي موسى رضى الله عنه. متفق عليه.

(٣٦٨) الخليفة هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

(٣٦٩) تناوشتهم : تناولتهم.

(٣٧٠) تناكروا : أنكر بعضهم بعضا.

(٣٧١) النازغ : المفسد.

(٣٧٢) العقبى : العاقبة.

(٣٧٣) أردى : أسقط ، أهلك.

(٣٧٤) سورة الإسراء / آية : ٥٣ وتتمة الآية : « إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبينا ».

(٣٧٥) الموطئون أكنافا : اللينو الجوانب . الحديث : [إن اقربكم منى مجلساً أحاسنكم أخلاقاً، الموطنون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون] رواه الطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر بسند ضعيف.

(٣٧٦) النجح : النجاح.

(٣٧٧) تتجافى جنوبهم : لا ترتاح أو تبتعد جوانب أجسادهم.

(٣٧٨) سورة الأنفال / بداية الآية : ٦٠.

(٣٧٩) ورد في سيرة ابن هشام أن النبي صلى الله عليه وسلم ـ ليلة بدر ـ سأل من معه : كيف تقاتلون ؟ فأخذ عاصم بن ثابت القوس والنبل وقال : إذا كان القوم قريباً من مئتي ذراع كان الرمي، وإذا دنوا حتى تنالهم الرماح كانت المداعسة حتى تقصف ، فإذا تقصفت وضعناها وأخذنا السيوف وكانت المجالدة. فقال النبي صلى الله عليه وسلم هكذا نزلت الحرب من قاتل فليقاتل كما يقاتل عاصم.

(٣٨٠) البأس : القوة والشدة.

(×) سورة الذاريات ، آية : ٥٥.

(٣٨١) سورة الأنفال ـ الآية : ٢٤، ٢٥.

(٣٨٢) المتن : الظهر ، والجمع متون.

(٣٨٣) الغارب : مابين السنام الى العنق.

(٣٨٤) السنابك : جمع سنبك ، وهو طرف حافر الجواد.

(٣٨٥) البرنات : أو البيرانس ، وهي الجبال الواقعة بين فرنسا وأسبانيا.

(٣٨٦) المحيط الغربي : هو المحيط الأطلسي.

(٣٨٧) الشطوط : السواحل ، ومفردها شط.

(٣٨٨) المنجمد الشمالي : المتجمد الشمالي.

(٣٨٩) المحيط الجنوبي : المحيط الهادي.

(٣٩٠) هذا اعتقاد فرقة تسمى (الجبرية) ولكن محاهم الله وكثيراً من أهل البدع الضالة في الإسلام. (المؤلف).

(٣٩١) مر في الدروس الماضية من الأدلة القرآنية على إبطال هذه المزاعم مافيه الكفاية. وأما مسألة القضاء، فهي في الحقيقة اعتقاد فاش بين عامة الأمة، على وجه يخالف ما كان يعتقده السلف ، وخاصة الخلف أيضاً، لقصر عقولهم عن تناول مغزى القضاء، الذي هو عند أئمة (الأشعرية) و(الماتريدية) من أهل السنة تعلق الإرادة الإلهية أو العلم الإلهي بخلق الأشياء على ماهي عليه من الأزل، وإليك ما قاله (الأشعرية) في القضاء :

إرادة الله مع التعلق في أزل قضاؤه محقق

وماقاله (الماتريدية :

والقدر الإيجاد للأشيا على وفق مراد الله جل وعلا

وليس في هذا ما يتصوره العامة من وجوب الاعتقاد بسلب الإرادة الإنسانية ، بل الإنسان ذو إرادة واختيار، وهو الكسب ، الذي يسميه أئمة الدين الجزء الاختياري. وإنما المغالاة في العقائد عند العامة من أهل كل دين، كثيراً ما تؤثر على نفوسهم آثاراً تظهر على أعمالهم البدنية بصفة لا تنطبق على أصل العقيدة. ومن هذا القبيل مغالاة كثير من عامة المسلمين بعقيدة القضاء التي اتهمنا (الفرنجة) بسببها بموت الإرادة وفقد الإحساس ، وقالوا : إننا أصبحنا معرضين بهذا الاعتقاد =

= لقبول كل بلاء ينزل بنا، ولو مهما كان فيه من ضعة وذل وهوان ؛ وإن أمة هذا اعتقادها، لا تؤمل لها حياة بين الأحياء، بحكم السنة الطبيعية، سنة بقاء الأنسب التى يقضي بها تنازع البقاء. ولو أنصف (الافرنج) وتمعنوا قليلاً في تاريخ الإسلام وما فعله المسلمون من الانقلاب السياسي والعلمي في العالم أجمع، لظهر لهم أن الإسلام بريء من هذه الوصمة، بعد ما ظهر من أهله من آثار العمل في الوجود مالم يظهر أثره في أمة من الأمم من قبل. وإنما هناك خطأ في فهم القضاء أوجب التحريف في هذه العقيدة عند العامة، ولابد في إصلاح هذا الخطإ من نهوض أئمة المسلمين إلى تدارك الأمر قبل أن يتحقق ظن الأوربيين في بقية هذه الأمة، كما تحقق في قسم عظيم منها، خنع للاستعباد، واستنام لحكم الأجنبي، فارتكس في أمواج الحيرة، وأصبح هدفاً للاضمحلال ، لا سمح الله.

ولا شك أن علماء هذه الأمة هم المسؤولون عن هذا الحيف المحيق بالمسلمين ، الذين أقعدتهم الأوهام عن مجاراة الأمم الحية ومكافحة الحوادث بسلاح الجد والعمل. والله بالعاقبة عليم (المؤلف).

(٣٩٢) إن هذا : ما هذا.

(٣٩٣) سورة النحل / جزء من الآية : ٨٩.

(٣٩٤) سورة التوبة/ آية : ١١٩.

فهـرس الكتـاب

صـدر منها:

١ - **الشباب دوره ومشكلاته:**
تأليف د. صالح الفوزان - الأستاذ شاكر سالم الدولة.
٢ - **معالم رئيسية فى مسيرة الجامعة الإسلامية**
تأليف د. عز الدين ابراهيم.
٣ - **محمد بن عبدالوهاب داعية التوحيد والتجديد فى العصر الحديث**
تأليف الأستاذ محمد بهجة الأثرى.
٤ - **توجيهات الإسلام فى نطاق الأسرة**
تأليف د. عبدالله بن عبدالمحسن التركى.
٥ - **الاجتهاد ورعاية المصلحة ودرء المفسدة فى الشريعة الإسلامية**
تأليف د. عبدالعزيز السعيد.
٦ - **السياسة الجنائية فى التشريع الإسلامى**
د. مصطفى محمد حسنين.
٧ - **الزواج فى الشريعة الإسلامية.**
تأليف الشيخ محمد الصالح العثيمين.
والشيخ عبدالعزيز بن محمد بن داود.
٨ - **حول انتشار الإسلام وقائع وملاحظات**
تأليف د. عماد الدين خليل.
٩ - **التكافل الاجتماعى فى الشريعة الإسلامية**
تأليف د. محمد بن أحمد الصالح.
١٠ - **تطهير الجنان والأركان عن درن الشرك والكفران**
تأليف الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامى آل بن على.
١١ - **ظاهرة رفض السنة وعدم الاحتجاج بها**
تأليف صالح أحمد رضا.
١٢ - **الإرهاب والعنف فى الفكر الصهيونى**
تأليف د. إسماعيل أحمد ياغى.
١٣ - **ابن قيم الجوزية**
تأليف د. محمد الأنور السنهوتى.

١٤ ـ **كيف تحفظ القرآن الكريم**

تأليف الشيخ عبدالرب نواب الدين

١٥ ـ **الشعوب الإسلامية ووسائل التقريب بينها.**

تأليف د. مقداد يالجن.

١٦ ـ **ميسرات البحث العلمي عند المسلمين.**

تأليف د. محمد عبدالعليم مرسي.

١٧ ـ **الدروس الحكمية للناشئة الإسلامية.**

تأليف الأستاذ رفيق العظم إعداد محمود رداوى.

مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تصدر الجامعة من أجل تحقيق رسالتها الثقافية
الكثير من المطبوعات الثقافية ومنها السلاسل التالية ـ

١ ـ رسائل التعريف بالإسلام .
٢ ـ آداب الشعوب الإسلامية .
٣ ـ رسائل جامعية .
٤ ـ من ينابيع الثقافة .
٥ ـ قصص إسلامية .
٦ ـ الداء والشفاء .
٧ ـ رسائل إرشادية .
٨ ـ الطريق المستقيم .
٩ ـ بحوث طلابية .